سلسلة
الخيال
العلمي

٢٤

طيور الليل

د. طالب عمران

دار الفكر
آفاق معرفة متجددة

طالب عمران

- من مواليد دمشق ١٩٤٨

- دكتوراه في المنطويات التفاضلية والفلك من جامعة عليكرة الإسلامية بالهند.

- أستاذ في كلية الهندسة المدنية بجامعة دمشق

- عضو جمعية تاريخ العلوم عند العرب، ومركز الدراسات الفلكية (جامعة دمشق)، واتحاد الكتاب العرب، واتحاد الصحفيين العرب.

له:

- العالم من حولنا
- كوكب الأحلام
- العابرون خلف الشمس
- صوت من القاع
- نافذة على كوكب الحياة
- سلسلة روايات الخيال العلمي (دار الفكر)

منحة 2006

SIDA



طيور الليل

طيور الليل/ طالب عمران.- دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٤.- ٢٣٢ص؛ ٢٠سم.
(روايات من الخيال العلمي؛٢٤).
١-٨١٣,٠٨٨ ع م ر ط ٢-العنوان
٣-عمران ٤-السلسلة

روايات

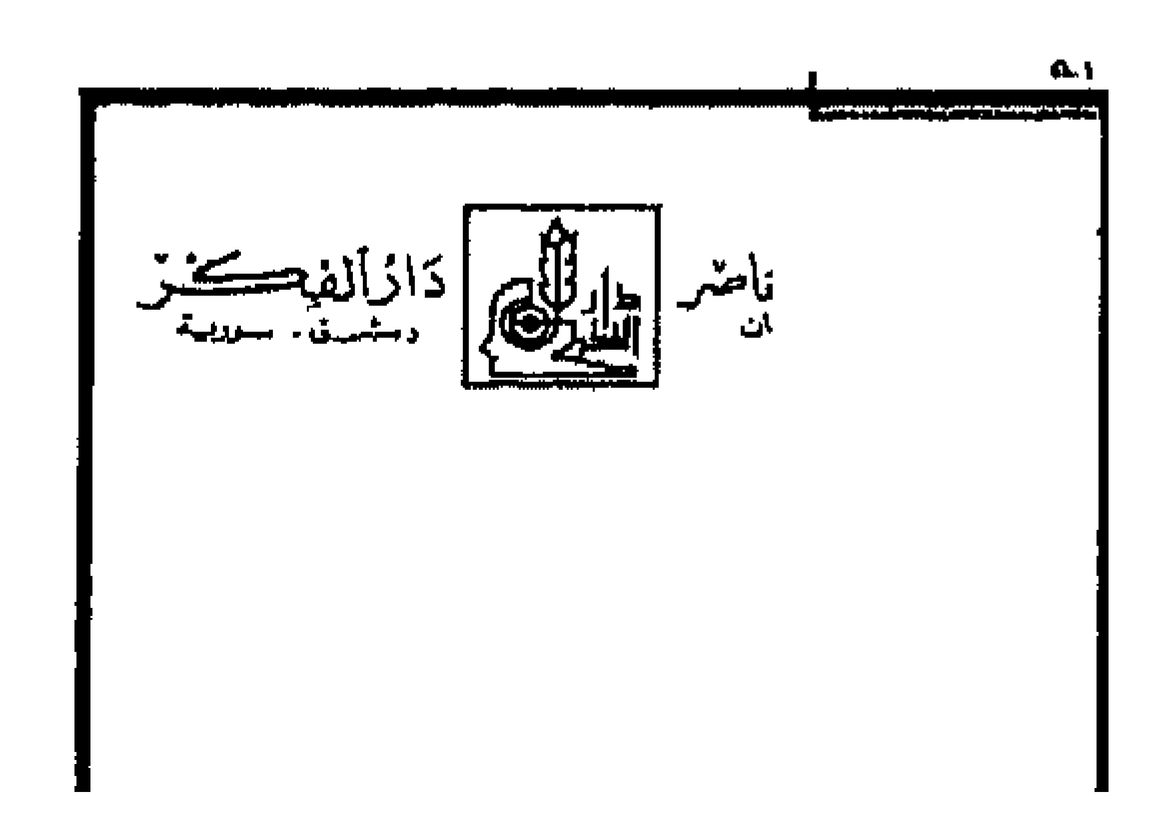
من الخيال العلمي

(٢٤)

الدكتور

طالب عمران

طيور الليل



الرقم الاصطلاحي للسلسلة: ٣٠٤٢,٢٤
الرقم الاصطلاحي للحلقة: ١٧٢٤,٠٣١
لرقم الدولي للسلسلة: ISBN: 1-57547-412-3
الرقم الدولي للحلقة: ISBN: 1-59239-204-0
الرقم الموضوعي: ٨٥٠
الموضوع: القصة والرواية
السلسلة: روايات الخيال العلمي
العنوان: طيور الليل
التأليف: د. طالب عمران
الصف التصويري: دار الفكر - دمشق
التنفيذ الطباعي: المطبعة العلمية - دمشق
عدد الصفحات: ٢٣٢ صفحة
قياس الصفحة: ١٤ × ٢٠سم
عدد النسخ: ١٥٠٠ نسخة

دار الفكر بدمشق

برامكة مقابل مركز الانطلاق الموحد
ص.ب: (٩٦٢) دمشق-سورية
فاكس: ٢٢٣٩٧١٦
هاتف: ٢٢٣٩٧١٧ - ٢٢١١١٦٦
http://www.fikr.com/
e-mail: info@fikr.com

Frankfurter Buchmesse 2004
العالم العربي ضيف الشرف ٢٠٠٤
Guest of Honour 2004: Arab World
نظرة إلى المستقبل

الطبعة الأولى
رجب ١٤٢٥هـ
آب (أغسطس) ٢٠٠٤م

المحتوى

تلك الفتاة القبيحة

هناك أنواع من السحالي تنتشر في الهند وفي المناطق الحارة بشكل كبير، ولا أحد يؤذيها لأنَّها تتغذَّى بالحشرات، ولكنها سامَّة، إذا نفثت لعابها في الطعام قتلت من يأكل هذا الطعام.. وهم يبعدون الملح عن طريقها لأنها تسفُّ منه ثم تبصقه في أواني الشرب وفوق الطعام..

هي حيوانات مقزِّزة.. منفِّرة، ولكن سمّها مفيد في علاج الأمراض، وهناك طريقة خاصة لصنع زيت السحالي السامّ، ولهذه الطريقة حكاية، وهي حكاية غريبة، فالذي اكتشف هذا الزيت هو عجوز سيريلانكي يعمل في أحد المعابد البوذيَّة في (كولومبو)، وقد مات متأثراً بزيت السحالي في أواخر عام ١٩٨٥، بعدما بيَّن لأفراد بعثة طبيَّة تابعة للأمم المتحدة، زارت سيريلانكا في ذلك الحين، أهمية وفائدة زيت السحالي.

بدأنا الحديث عن تلك الحيوانات القبيحة، وهي ليست محور قصتنا، فما دمنا نتحدث عن القبح والبشاعة، وبدأنا بذلك حديثنا عن حيوان قبيح منفِّر هو السحليّة، سأحكي قصَّة تتعلق بالقبح، وربما كانت من أغرب القصص التي حدثت في السنوات الأخيرة.. قصَّة بدأت أحداثها عام ١٩٦٩ في حيّ مشهور من أحياء العاصمة.



تلك الفتاة القبيحة

- ١ -

دخل أبو ماجد بعدما أبلغوه الخبر، كان مسروراً من الفرح:

- «وبعد أربعة صبيان، ولدت أم ماجد بنتاً، إذن.. لابد أنها جميلة، أولادي كلهم أصحاء، يلفتون النظر بجمالهم وحلاوة أشكالهم..

سألته الممرضة:

- أتريد أن ترى الطفلة؟

- لا بأس..

- بعد أن تنتهي من الرضاعة، سأحضرها إلى غرفة زوجتك.. ستستيقظ بعد قليل.

- وزوجتي لم ترها بعد؟

- لا.. رأى الطبيب أن يؤجل ذلك بعض الوقت..

- لماذا؟ الأم تحسُّ بالطمأنينة وتنسى الوجع حين يستقر رضيعها المولود حديثاً في حضنها..

- معك حق..

دخل غرفة زوجته:

- حمداً لله على سلامتك يا أم ماجد..

- آه، يا أبا ماجد.. هل الطفلة بخير؟

- رأيت ملفّها، إنها تزن أربعة كيلو غرام.. أعتقد إذن أن صحتها جيِّدة..

- سأضغط الجرس.. أريد رؤيتها..

حضرت الممرضة:

- نعم.. ماذا تريدين؟ هل أحضر لك الطبيب؟

- لا.. أريد أن أرى ابنتي..

- إنها نائمة.. ستستيقظ، أجِّلي ذلك بعض الوقت..

- سأذهب إلى غرفة الرضَّع وأراها..

- لا يا سيدتي، وضعك لا يساعد على ذلك، سأرى إن كانت مستيقظة سأحضرها لك..

- حتى لو كانت نائمة أحضريها، سترقد في حضني وتنام.. لا تقلقي..

- كما تشائين..

همست أم ماجد لزوجها:

- لا تتصور كم أنا متشوقة لرؤيتها..؟ هل الأولاد بخير؟

- نعم.. أصرّوا على القدوم وزيارتك بعد الظهر.. لدقائق فقط.. هكذا اشترطت عليهم..

- لا بأس.. المهم أن تكون حاجاتهم مؤمَّنة..

- أختك سميحة لم تتركهم أبداً..

- الحمد لله..

حضر الطبيب، والممرضة بيدها الطفلة ملفوفة، قال الطبيب:

- الحمد لله على سلامتك يا أم ماجد..

- شكراً لك يا دكتور.. قرِّبي لي الطفلة يا آنسة..

قال الطبيب:

- انتظري قليلاً.. أريد أن أتكلم معك قبل ذلك..

- معي أنا؟

- معك ومع زوجك.. حالة الطفلة جيِّدة، نبضها طبيعي، أعضاؤها تعمل جيِّداً، إنما هناك بعض التشوُّه في وجهها.. وجهها مدوَّر و..

صرخت:

- أرني ابنتي.. أعطنيها..

- تفضلي.. أرجوك لا تنزعجي..

- «يا ويلي» أمتأكد أن هذه الطفلة لي؟

- بالطبع يا سيدتي.. لماذا تقولين ذلك؟

- مستحيل.. لقد بدلتموها.. أحضروا ابنتي، أريد أن أراها..

- أرجوك.. لا داعي لهذا الكلام..

- سبحان الله.. لم أر مثل هذا القبح أبداً..

- اتَّق الله، هذه الطفلة لكم.. وكل الأطفال في الحاضنة ولدوا قبل أوانهم وأمهاتهم لسن هنا في المستشفى..

- مستحيل أن أنجب مثل هذه القردة.. كيف ستعيش في بيتي وفي منزلي؟

- اسمعي يا سيدتي أنت وزوجك.. مسؤولية تشوُّه هذه الطفلة تقع عليكما.. أنت بتدخينك المتواصل، وقد حذَّرتك من ذلك مراراً، وأنت يا سيِّدي بشربك المستمرّ للكحول..

- مستحيل.. ليس هذا سبباً..

- بل إنه الواقع؛ كل البحوث الطبيَّة تؤكد ذلك..

- وكنت آخذُ حبوب منع الحمل، ولم أنقطع عنها يوماً، وفوق ذلك حصل الحمل..

- هذه الطفلة البريئة لا تتحمَّل مسؤولية تشوهها.. إذا لم ترغبي بتربيتها وزوجك فسنقدمها للملجأ.. يمكنك الانصراف من هنا وزوجك وكأن شيئاً لم يكن.. أرجعي الطفلة إلى الحاضنة يا آنسة..

- طيِّب يا دكتور..

- يمكنك مغادرة المستشفى بعد الظهر، سأوقع على البيان.. بإذنكما..

خرج غاضباً تتبعه الممرضة، وهي تحمل الطفلة، كانت أم ماجد تبكي وأبو ماجد يطرق في الأرض..

- يا إلهي يا أبا ماجد.. مستحيل.. ماذا أفعل؟ لست أصدّق أبداً كيف ننجب مثل هذه الطفلة؟

- كلام الطبيب صحيح، يجب أن نتفق على شيء، لم يأت أحد لزيارتك بعد.. ما رأيك أن نترك الطفلة هنا.. ونقول للناس: إنك ولدت بنتاً ميتة.. سندبِّر الأمر.

- والطفلة.. ابنتنا؟ أنتركها تذهب إلى الملجأ؟

- وما هو الحلّ؟ إنها غاية في القبح، كيف ستعيش وتكبر، ما سيكون وضعنا بين الناس وسخريتهم منّا؟ ووضع إخوتها الذين سيجنبون الناس أو سيتجنبهم الناس؟.. إنه وضع صعب..

- ولكن ما ذنب هذه المخلوقة، إنها قطعة منّا.. أنهرب من خطايانا يا أبا ماجد؟ معقول؟ كنت أماً مستهترة، لم أستمع لنصيحة أحد.. صحيح أنني لم أكن أدخن إبان فترة حملي بأبنائي.. ولكن الفاصل الزمني بين أصغر الأولاد وهذه البائسة وهو تسع سنوات، جعلني أعتاد خلال تلك الفترة الدخان، حتى أصبح جزءاً مني.. وأنت أيضاً..

- ماذا؟

- أدمنت الكحول هذه الفترة بسبب وضعك وسهراتك

المتواصلة، ولقاءاتك مع رجال الأعمال واستهتارك بصحتك، أصبحت مدمناً..

- سأترك شرب الكحول.. أنا في مباحثات جديَّة حول هذا الموضوع مع طبيب الشركة..

- لن تستطيع، أعرف ذلك، أتعلم.. أشعر بحاجة إلى التدخين ولكني خائفة من الطبيب.. آه.. يا إلهي..

- ما دام الوضع هكذا، لِمَ لم نضع احتمال تشوُّه الجنين من قبل؟

- أكَّد لي الطبيب أن وضع الحمل جيِّد، عرف بشكل متأخر أنني أدخن بشراهة.. وأنك مدمن على الكحول..

- لا يهم.. اتركينا من هذه القصص.. اتفقنا إذن.. سنترك الطفلة هنا حيث يتم تسليمها للملجأ..

- أشعر بقلبي ينعصر، ما ذنب هذه الطفلة المسكينة؟

- وما ذنبنا وأولادنا أن نعيش مع هذه المخلوقة القبيحة؟ وأن نتحمَّل واقعاً مريراً سيؤثر فينا بلا شك..

بكت وهي تهزُّ رأسها:

- يا إلهي.. ماذا أفعل؟

وفي غرفة الطبيب كانت الممرضة تستفسر منه عن مستقبل الطفلة:

- كنت جادّاً في حديثك يا دكتور؟

- بالطبع أشعر أنهما سيرفضانها تماماً..

- رغم قبحها.. تبدو بصحة جيِّدة..

- نعم.. إنها بريئة دون ذنب.. تتحمَّل وزر استهتار أبويها..

- أتعتقد أنهما سيتخليان عنها؟

- كل شيء ممكن.. الله يعلم ذلك..

ورنَّ جرس الهاتف في غرفة أم ماجد، رفع الزوج السماعة:

- آلو.. من سميحة.. أهلاً بك..

- كيف حال أختي؟ هل هي بخير، وهل الطفلة بخير؟

- آه.. لا.. ليس وضعها جيِّداً..

- ماذا تقول؟

- الطبيب يؤكد أنها بصحَّة ضعيفة، وهو يحاول إنقاذها..

- خفِّف عن أم ماجد.. سآتي لزيارتها..

- لا داعي لذلك.. انتبهي للأولاد.. لا تأتي، لا داعي لمجيئك..

- طيّب.. أريد أن أتكلم مع أختي..

- إنها نائمة هل أوقظها لك؟

- لا.. لا داعي لذلك.. بلغها سلامي..

وضع سماعة الهاتف، ثم قالت أم ماجد:

- جيِّد أنك أخبرتها أني نائمة..

- خفت أن يزل لسانك وتفضحي الموضوع.. اسمعي يجب أن أخرجك سريعاً من المستشفى قبل أن يتدفق الزوّار علينا..

- آه.. معك حق..

- جيِّد.. أنك اقتنعت بفكرتي أخيراً..

وجاءت امرأة غريبة إلى المستشفى، سألت الممرضة:

- أنا أخت أم ماجد.. هل ماتت طفلتها؟

- طفلتها؟ لا .. إنها بخير وبصحة جيِّدة.. من قال لك إنها ستموت؟

- يا إلهي .. يبدو أن سرّاً في الأمر.. آسفة، هل يمكنني رؤيتها؟

- متأكدة من ذلك؟ ألم تقل لك أختك شيئاً؟

- لا.. يجب أن أراها، أرجوك..

- الأفضل أن تذهبي إلى غرفة أختك وتستأذني منها في رؤية الطفلة..

- لا.. أرجوك.. لا أريد ذلك.. قد لا تقبل.. ربما كان هناك سرّ ولكن تأكّدي أني كتوم.. لن أتكلم إلى أحد عنه.. أرجوك..

- تبدين طيبة، قد تخلصينني من الإحساس بالعجز عن فعل شيء..

- ماذا تقصدين؟

- لا.. لا شيء.. انتبهي أرجوك.. لا أريد أن تعرف أختك وزوجها بذلك..

- أقسم لك، لن أتكلّم إلى أحد..

فكّرت المرأة:

- «لماذا هذا الإصرار؟ عجيب».

- انتبهي لنفسك.. تبدين متلهّفة؟ أخشى أن يخيب أملك..

- أين هي الطفلة؟

- هذه هي، ارفعي عنها الغطاء واحمليها.. صحتها جيدة؟؟

- ما هذا؟ يا إلهي..

أصيبت بالذعر:

- الآن عرفت السرّ، إنهم لا يريدونها، مسكينة إنها تبتسم.. يا إلهي ما أشد قبحها ولكن شيئاً خاصاً في عينيها الزائغتين..

فكّرت الممرضة:

- لم تخف منها.. إنها تهدهدها بحنان.. الطفلة تتوقف عن البكاء..

قالت سميحة:

- إنها جائعة.. ألم ترضعها أمها؟

- لا.. أعطيناها حليباً صناعيّاً..

- اسمعيني يا آنسة.. أريد أن أتحادث معك بكل صراحة ووضوح.. أرجوك اصدقيني وقولي لي كل شيء..

- طيّب.. أعدك..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

وبعد مدة قصيرة:

- هكذا إذن..

- تصوَّر يا دكتور لم أرَ في حياتي مثل هذه المرأة ونظرتها للطفلة، كانت نظرة مليئة بالمحبَّة والعطف.. أنا متأكدة أنها ستربيها التربية الصحيحة وستعتني بها، هذه المرأة كتلة من الحبّ.. يا إلهي.. لم أرَ في حياتي مثل هذا الدفق من الحنان الذي أظهرته للطفلة..

- غريب فعلاً.. ولكن لماذا؟

- إنها لم ترزق طفلاً في حياتها مع زوجها بعد عشرين سنة من الزواج الناجح، إلا أنها تخدمه بكل إخلاص.. ورغم خلو البيت من الأطفال، فإنها وضعت نفسها تحت تصرف أختها تخدم أولادها وتعتني بهم..

- أعتقد أننا سنوافق على تبنِّيها للطفلة.. سأدبر الأمر..

- هي تصرُّ على ألا يعرف أحد شيئاً عن الموضوع، وخاصة أختها وزوجها..

- لا بأس من ذلك، ما المانع؟ دعيها تدخل، أريد أن أراها..

وهكذا أنهت سميحة إجراءات تبنِّي الطفلة المشوَّهة في معزل عن أختها أم ماجد.. التي أعلنت أنها ولدت طفلة ميتة.. ورغم قلق أم ماجد على الطفلة وإحساسها أنها ترتكب جريمة، فسرعان ما نسيت الموضوع، تحت الأمر الواقع الذي فرضه زوجها..

ولم تعرف أم ماجد عن خبر تبنِّي أختها للطفلة..

ومنعاً لمثل هذا الاحتمال، انتقلت سميحة مع زوجها المشلول والطفلة التي أطلقت عليها اسم (وعد) إلى قرية تبعد عن العاصمة (٦٠) كيلو متراً.. ولم تعطِ أختها عنوان سكنها..

كان هذا غريباً بلا شك عند أم ماجد، وخاصة أن (سميحة) كانت تساعدها في خدمة الأولاد.. ولكن سميحة وهي تودِّعها أكَّدت لها أن زوجها يلائمه هواء الريف والبعد عن الصخب، وأنه متضايق من سكناه في المدينة، إلى درجة أن نوبة قلبية تعرض لها إبان ولادة أم ماجد.. كادت تودي بحياته..

ولم تبالِ أم ماجد بذلك، بل اعتادت عليه، وهكذا كبرت الطفلة بعيداً عن المدينة، ورغم قبحها وبشاعتها كان ذكاؤها ملفتاً للنظر..

ولم تختلط بالطبع ببقية الأطفال..

عندما كانت (سميحة) تخرج بها خارج البيت كانت تلبسها غطاءً للرأس لا يظهر من خلاله سوى عينيها، ورغم مظهر يديها البشع أيضاً، فلم تكن تلفت النظر في قرية صغيرة، الفضول في أهلها ليس كبيراً..

ولذكاء الطفلة المتميِّز أدخلتها مدرسة القرية بعدما أوصت المعلمة بها خيراً، وشدَّدت على الطفلة ألا تخلع غطاء رأسها لأي سبب..

ومرت ست سنوات عليها وهي في هذا الوضع.. تذهب إلى المدرسة وتعود بهدوء، وسميحة تظهر لها الحنان، ما جعلها طفلة واثقة من نفسها غير خائفة.. وفي إحدى المرّات قالت لها المعلمة في المدرسة:

- أحسنت يا (وعد) أنت فتاة ذكيَّة.. هل تعلِّمك والدتك في البيت؟

- أنا أعتمد على نفسي يا آنسة..

- معقول؟ أنت نابغة إذن..

ورنَّ جرس انتهاء الحصة..

- هه.. انصرفوا يا أطفال.. ابقي هنا يا وعد..

- حاضر يا آنسة..

- أنا جديدة هنا يا وعد.. لا أعرف شيئاً.. ولكن يبدو أن أمك متعصِّبة أكثر من اللازم، وهي تلبسك هذا الغطاء السميك، وأنت طفلة بين أطفال صغار لا يفهمون شيئاً.

- أمرتني أمي ألا أخلعه لأي سبب..

- أريد أن أرى وجهك، لا شك أنك حلوة يا طفلتي..

- أرجوك يا آنسة.. لا أستطيع..

- لماذا؟ سأكشفه بنفسي..

- لا.. لقد احترق وجهي في طفولتي.. لذلك أستره.. انظري إلى يديّ..

- هكذا إذن.. أنا آسفة، يمكنك الانصراف..

وحكت وعد لأمها كل شيء:

- فعلت خيراً يا ابنتي..

- لم أستطع الخلاص من إلحاحها، فاضطررت إلى الكذب.. ولكني لست خائفة يا أمي، لماذا لا أخلع هذا الغطاء؟

- أنت لا ترتدينه إلا حين تخرجين من البيت.. هذا سيسبب لك الأذى يا ابنتي، عديني أن تلتزمي بارتدائه مهما حدث لك..

- آه.. كما تشائين يا أمي.. أعدك.. ولكن.. لماذا خلقني الله بهذه البشاعة؟

- يا حبيبتي ومن قال: إنك بشعة؟ البشاعة في النفس وفي سوء معاملة الناس، في الغدر وامتهان القيم..

- سأذهب إلى الحديقة، سأقرأ لأبي القصَّة التي كتبتها، وحازت على استحسان المعلمة عندنا..

- هيّا يا حبيبتي.. اذهبي..

☆ ☆ ☆

- ٣ -

في بيت أبي ماجد كان حواراً حامياً يدور بينه وبين زوجته:

- يكفي يا أم ماجد.. يكفي.. أنا متعب أرجوك..

- لا أستطيع.. كأن شيئاً غريباً حدث لنا، ماجد في السجن بتهمة تعاطي المخدرات.. وماهر هرب إلى خارج البلاد بعدما اختلس أموال الشركة التي كان يعمل بها.. والآن (عزّة) يزوِّر توكيلاً باسمه ويبيع البيت ويصرف ثمنه على القمار..

- أنت المسؤولة، دللتهم كثيراً..

- آه.. كلّه مني.. أنا السبب.. معك حق.. معك حق..

- ألم يعد ممدوح بعد؟

- هتف قبل قليل، إنه يدرس مع رفاقه..

- متأكدة أنه يدرس مع رفاقه، أم في مكان آخر؟

- إنه البقية الباقية من آمالنا وطموحاتنا بولد يعيد البسمة إلينا..

- لا أعتقد أنه سيختلف عنهم.. لو كان مختلفاً لم يرسب في الثانوية العامة ثلاث سنوات.

- مسكين.. لقد أقلقته أعمال أخوته..

- آه .. أنا متعب..

- ستجري عملية غسيل كلى، غداً.. هدئ نفسك..

- صحيح نسيت أن أقول لك: إن سميحة اتَّصلت تطمئن عنك.. تقول: إنها قد تزورنا غداً.. سألتني عن الجميع، راوغت في الإجابة..

- سميحة؟ منذ سنتين لم أرها..

- ولكنها تتصل بنا كل فترة..

- غريب.. إنها انعزلت في تلك القرية مع زوجها، وابتعدت عن الاختلاط بأحد؟

- إنها حريصة على صحة زوجها..

- حتى الأولاد لم تعد تهتم بهم، بعد أن انتقلت إلى تلك القرية قبل خمسة عشر عاماً.. فعلاً نحن الآن في عام ١٩٨٤، ومنذ عام ١٩٦٩ وهي تعيش في تلك القرية.. سبحان الله.. إنها مرتاحة من متاعب الأولاد ومشاكلهم..

- كانت تحلم باليوم الذي سيرزقها الله بولد، ثم تركت هذا الحلم وانغمست في الحياة، بواقعها المرير.. محظوظ زوجها فعلاً..

قطع عليهما الحديث دخول ممدوح الابن الأصغر.. همس الأب:

- حضر المدلل..

- سأرى إن كان يحتاج شيئاً..

- في هذه الساعة، إنها الثانية عشرة..

- ممدوح.. هل تعشيت يا حبيبي؟

- نعم..

كان يتمايل من السكر:

- أنا ذاهب لأنام.. أنا تعبان..

- دخل غرفته.. سألحق به..

تهادت وراءه، وصل وتمدَّد على السرير:

- نام المسكين بثيابه.. ما هذا؟ إنها رائحة كحول؟ يا إلهي.. إنه سكران، معقول، لا، كيف يحدث هذا؟ كيف؟ يالي من تعيسة عاثرة الحظ..

وفي الصباح التالي طرق الباب:

- هه.. يبدو أن أحداً بالباب يا أم ماجد.. أم ماجد..

- آه..

- انهضي وافتحي الباب، ما زال ابنك المدلَّل يغطُّ في نومه؟

وحين فتحت أم ماجد الباب، أصابتها الدهشة، كانت سميحة في الباب وبصحبتها صبيَّة صغيرة..

- إنها ابنتي.. لم تريها من قبل؟

- ابنتك؟!..

همست سميحة:

- بالتَّبني.. لا تفضحي الموضوع..

- أهلاً وسهلاً..

همست:

- لماذا تضع غطاءً على رأسها؟ هكذا؟

- ابنتي متديِّنة جداً.. ادخلي يا وعد.. ادخلي يا حبيبتي..

- أبا ماجد.. أبا ماجد.. حضرت سميحة..

حكت أم ماجد لأختها عن عذاباتها مع الأولاد ومع زوجها المريض:

- كل هذا حدث لك ولا أعرف عنه شيئاً.. مسكينة لم تكوني محظوظة..

- قدمنا لهم كل شيء في سبيل أن يتعلموا ويخرجوا للحياة بسلاح المال، وقد كنّا نملك الكثير.. ولكننا الآن لا نملك حتى البيت الذي نسكنه، إنه مرهون الآن.. لا أدري ما جرى لهم؟ هدَّموا كل ما بنيناه..

تنهدت حزينة، وهي تروي لسميحة مشكلات أولادها.. غمزت لها سميحة مشيرة إلى أبي ماجد:

- يبدو أن أبا ماجد انسجم مع وعد..

- تبدو فتاة طيِّبة..

ولكن سميحة ووعداً لم يطيلا مدة الزيارة.

☆ ☆ ☆

- معقول فتاة صغيرة في الخامسة عشرة من عمرها تملك هذا الذكاء الخارق، لا تتصوري يا أم ماجد مبلغ دهشتي وأنا أرى

أفعالها في البيت، لقد أعادت الترتيب إليه، وأضفت عليه طابعاً من الجمال لم يكن موجوداً فيه..

تنهدت أم ماجد:

- يا حسرتي.. لم يعد بيتنا.. لن نستطيع فك الرهان عنه..

- لو لم أتقاعد، لكنت الآن في وضع آخر، الكل يتسابق لإرضائي..

- خفِّف عنك.. وماذا تفعل؟ إنه قدرنا..

- لماذا؟ صرخ ممدوح مرعوباً وخرج من البيت.

- لا أدري .. لم يترك لي فرصة لسؤاله، أخافت صرخته وعداً فهرعت إلى أمها تطلب منها الخروج وإنهاء الزيارة.

☆ ☆ ☆

أما سميحة فكانت تتحاور مع ابنتها وعد:

- وماذا أفعل يا أمي؟ كان الباب مغلقاً فتحه فجأة ورأى وجهي، قبل أن أتمكن من وضع الغطاء..

- أخشى أن يحكي لوالديه..

- أوه يا أمي.. لست خائفة وأستطيع مواجهة الناس، القبح ليس لي علاقة به.. لم أصنعه.. إنها إرادة الله أن أكون هكذا.. إنها حقيقتي..

- آه، يا حبيبتي، معك حق...



- ٤ -

اشتدَّت حالة أبي ماجد، وأصبحت عملية تطهير الدم التي يقوم بها تشكل عبئاً كبيراً عليه.. ونصحه الأطباء بزرع كلية مكان إحدى كليتيه المصابتين.. كانت العملية مكلفة.. وقد همس إليه أحد الأطباء ناصحاً من أنه بحاجة لمتبرع بالكلية يقدِّم له الكلية المناسبة، ولن تكون العملية مكلفة كثيراً ما دام المتبرع لن يأخذ ثمن كليته التي سيتبرع بها..

فحصت أم ماجد نفسها وإمكانية تبرعها بإحدى كليتيها لزوجها، ولكن نتيجة الفحص كانت سلبيَّة، ولم تترك أم ماجد أحداً من المعارف والأقرباء إلا وحاولت أن تستدرَّ عطفه ليساعد زوجها دون نتيجة.. ولم تجد أمامها أخيراً سوى ممدوح ابنها:

- ماذا تقولين يا أماه، أنا شاب ما أزال صغيراً، أمعقول أن أتبرع بكليتي لرجل عجوز كأبي، ليس أمامه وقت كبير ليموت؟ أمعقول أن أضحّي بنفسي في سبيله وهو رجل عجوز؟

- سامحك الله يا بني.. إنه أبوك، ثم من قال لك: إنك لن تستطيع العيش بكلية واحدة، يؤكد الطبيب أنك ستعيش طويلاً ولن يؤثر فيك أبداً نقص إحدى كليتيك..

- لن أقامر بحياتي هكذا.. لماذا أنا، وليس ماهر أو عزَّة أو حتى ماجد؟

- ليسوا في متناول يدي حتى أطلب منهم..

- إِنْسَيْ الموضوع، هذا مستحيل..

أنقذته طرقات على الباب، هرع مسرعاً يفتحه، وحين طالعته ملاءة وعد:

- أنت أيتها الشيطانة.. هه..

فكَّرت الصبيَّة:

- يا إلهي خرج مرعوباً..

- من يا ممدوح؟

- صباح الخير يا خالتي..

- أهلاً يا ابنتي.. ممدوح .. ممدوح..

- خرج يا خالتي..

- سامحه الله.. تصوري كنت أتحادث معه من أجل إقناعه بالتبرع بإحدى كليتيه لوالده المريض.. هرب الوغد من الحديث.. آه على هذا الجيل الذي لا يعرف الرحمة..

- أما زال العم أبو ماجد يعاني من مشاكل الكلية؟

- وضعه يزداد خطورة.. لم أرَ باباً لقريب أو صديق إلا وطرقته.. أعلم أنها تضحية كبيرة في سبيل أبي ماجد من أي شخص سيتبرع له بكليته.. ولكن تأكدي أن أبا ماجد خدم الكثيرين.. آه يا إلهي..

- ثقي بالله يا خالتي.. قد يأتي المتبرع المطلوب أخيراً.. من يعلم؟

- كيف هي أختي؟ هل هي هنا في العاصمة؟

- نعم.. اصطحبت والدي لإجراء الفحوص الدوريّة له، وستأتي إلى هنا بعد قليل... قولي لي يا خالتي ما زمرة دم العم أبي ماجد؟

☆ ☆ ☆

وحين عادت وعد وأمها إلى القرية:

- قالت لي خذي الإذن من والدتك، لن أدعك تسافرين معي قبل أن تأذن والدتك..

- كيف خطر ببالك يا ابنتي أن تسافري معها، ستذهب وزوجها إلى دولة أخرى، وقد استدانت مبالغ كبيرة لإتمام عملية زرع الكلية لزوجها، وقد يكون وجودك عبئاً عليها..

- لا يا أمي... لا تقلقي من هذه الناحية.. سأسهر على راحتها، إنها ضعيفة متعبة يائسة وهي أختك، أي خالتي.. ليس لها أحد..

- معك حق يا وعد.. آه يا ابنتي.. لو كان والدك بصحَّة جيِّدة لسافرت أنا معها..

- إذن توافقين! شكراً لك يا أمي.. أرجوك اطلبي لي الموافقة من أبي.. اسمعي يا أمي.. أتمانعين لو رأت خالتي أم ماجد وجهي؟

- لا.. لا.. عديني ألا تفعلي ذلك لأيّ سبب.. ألست بحاجة لجواز سفر؟

- لا.. الهويّة الشخصيّة، إنها دولة عربيّة السفر إليها ممكن بالهويّة..

- الحمد لله.. صورتك بالهوية غير واضحة تماماً..

- وأبدو فيها جميلة نوعاً ما..

حين وصلت أم ماجد وزوجها مع وعد إلى المستشفى المتطوّر في العاصمة العربيّة المجاورة، وأجريت فحوصات لزوجها ولشخص آخر أعلن عن استعداده لبيع كليته بمبلغ كبير حسب الاتفاق، أصيب الشخص بوعكة صحيّة فتأجَّلت العملية رغم مطابقة كليته للمواصفات المطلوبة في الزرع وأوشكت أم ماجد أن تعود بزوجها، وقد أصابها يأس قاتل لولا أن حصلت تطورات أخرى.. دخل الطبيب وهي ترتب الأغراض للعودة:

- الحمد لله عثرنا على متبرع جديد، وهذه المرة تبدو الظروف ملائمة لإجراء العمليّة..

- كدت أنهار من اليأس وأنا أرى زوجي يذوي ببطء..

- إذن ستجرى العملية غداً..

- شكراً لك يا دكتور..

فتشت عن وعد:

- أكثر من ساعة وهي غائبة عني..

- كيف حالك يا خالتي؟

- بخير.. تأخرت قلقت عليك.. ماذا تضعين على يدك؟

- قفازاً صغيراً.. يداي مشوهتان، احترقتا في صغري.. لا تقلقي.. لا أحب أن يراهما أحد وينزعج لمنظرهما..

- دوماً تضعين هذا المنديل، ألا تنزعجين منه؟ نحن وحدنا هنا يمكنك نزعه وإراحة وجهك.

- لا.. لا داعي لذلك.. هه.. قولي لي، خابرت ممدوحاً؟

- نعم.. وسيأتي غداً في الصباح في (باص الكرنك).

- الحمد لله.. إنه شاب طيِّب.. قلت لك ذلك..



- ٥ -

وهكذا استعد الجرَّاح لإجراء عملية الزرع:

- لن نتأخر كثيراً.. لا تقلقي، إن شاء الله ستنجح العملية..

- إن شاء الله، أين وعد الآن؟ آه، قالت إنها ستذهب بعض الوقت لإيصال رسالة من أمها إلى صديقتها وستعود.. يا إلهي سترك.. لقد تأخَّرت..

ومرَّ الوقت سريعاً:

- ما زال في الداخل؟

- نعم.. أربع ساعات مضت، قلبي يأكله القلق..

خرج الجرّاح، كان مستبشراً:

- آه.. الحمد لله على سلامته، نجحت العملية بشكل مبدئي.. ولكن الفتاة..

- أية فتاة؟ من تقصد؟

- ابنة أختك، هي المتبرعة، تحمل موافقة من أهلها..

- ماذا؟ وعد؟ ماذا تقول؟

- اعتقدتُ أنك تعرفين.. رغم أنها أوصتني بكتم السرّ..

- مستحيل.. يا إلهي..

- لا تقلقي كل شيء، إن شاء الله، سيكون على ما يرام.. بإذنك..

سخر ممدوح:

- ما شاء الله، اكتملت القصّة، تلك الشيطانة البشعة أعطت لأبي كلية، كيف قبلت بذلك؟ إنها كتلة من الدمامة والبشاعة.. شيء مقرف..

- عمَّن تتحدث؟

- يعني ألا تعرفين عَمَّنْ؟ عن ابنة أختك المشوَّهة التي تحمل وجهاً مخيفاً لو رآه أي إنسان عاقل لأصيب بالجنون..

- مستحيل..

- ألم تري وجهها من قبل؟ عجيب؟ لماذا تضع هذا الغطاء إذن؟

همهمت مصعوقة وهي تكشف الغطاء عن وجه الفتاة:

- يا إلهي.. يا إلهي معقول؟ أيمكن أن تكون هي؟ وجهها يبدو غاية في القبح فعلاً ولكنه قبح جميل، قبح أعطى المحبّة والنبل.. يا

إلهي.. بعد كل تلك السنوات اكتشفت نفسي وقبحي وقبح عالمي، وجمال هذه المخلوقة البريئة الطاهرة.. آه.. يا أم ماجد.. آه.. يا ربي.. بعد كل تلك السنوات وقد نسيتها، تأتي وتخلّص والدها وتعيد إليه الحياة..

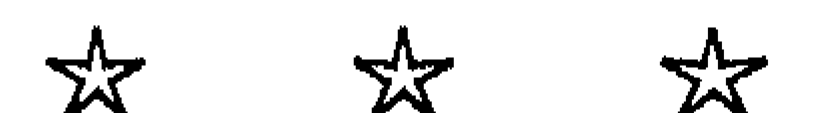
همست باكية:

- دكتور.. أرجوك.. أنقذ ابنتي.. حبيبتي الطاهرة.. خذ روحي وأنقذها أرجوك..

- أرجوك.. قد تستيقظ.. وتسببين لها الأذى.. إنها ضعيفة..

لم تعش (وعد) بعد ذلك أكثر من ستة أشهر حتى بداية عام ١٩٨٥.. ولكن أبا ماجد ما زال يعيش بكليتها.. وقد ترك رحيلها فراغاً قاسياً في حياة سميحة التي تضاعف حزنها عليها بعد رحيل زوجها المشلول أيضاً.. أما أم ماجد فلم تترك مناسبة تمرّ، إلا وتذهب لزيارة قبر (وعد) تبكي وتستعطفها أن تغفر لها..

ظاهرة القبح في الشكل والنبل الداخلي والطيبة، تتناقض مع ظاهرة الجمال في الشكل، والأنانيّة والوحشيّة والشرّ الذي يخفيه هذا الجمال..



طيور الليل

تنتشر الحكايات الغريبة كثيراً في المناطق النائية، أي القرى المعزولة، أو المناطق التي تعج بالكهوف والأدغال والأحراج الكثيفة والغابات.

ومنذ أن نشأ الإنسان على هذه الأرض وهو يكتشف أسرارها يوماً بعد يوم ولا يزال يجهل الكثير من هذه الأسرار أيضاً.. ولكن ما دمنا بدأنا حديثنا عن الكهوف في الجبال، سواء أكانت جبالاً جرداً أم تظللها الخضرة والغابات، وهي ليست كبيرة المساحة إلى الحد الذي يستعصي على الاكتشاف، إنها مناطق كثيفة الشجر موزعة متباعدة أحياناً بعضها عن بعض.. فالأشجار لا تتجمع كغابة ضخمة.. كثيفة، فيما يمكن أن نسميه بالأدغال.. أما عن الحكايات الغريبة في تلك المناطق فهي حكايات تنتشر بين الناس، وتأخذ طابعها الخرافي المخيف أحياناً حتى يحل العلم ألغازها.. ومن بين تلك الحكايات ما سنحكيه في القصة التالية..



- ١ -

بدأت القصة عام (١٩٥٠) تأخذ طابعها الجدي.. ففي عام (١٩٥٠) حدث الحادث الذي نبه الناس على خطورة ما يجري، وصيغت الحكايات والقصص الخرافية التي تمحورت حول ذلك الحادث.. كان الحقل الذي اشتراه حمدان وهو فلاح شاب، صغيراً إلى حد ما، يقع على سفح جبل تنتشر فيه الأحراج والكهوف الصغيرة.. كان الحقل (بائراً) غير مزروع.. ملأه العشب والشوك.. قضى حمدان في تنظيفه أكثر من عشرة أيام متواصلة.. وفي أحد الأيام، وكان قد مهد الأرض، واستعد لحراثتها ثم لبذارها.. جاءه ضيف..

- حمدان.. سألت عنك في البيت، أخبرتني أمك أنك هنا..

- أهلاً بك يا عمي مالك.. فرصة طيبة أن أراك هنا..

- يبدو أنك استصلحت الأرض جيداً، قمت بعمل كبير يا ابن أخي.. هل سجلت الأرض في (الطابو)؟

- نعم.. وقد دفعت آخر ليرة كانت معي..

- حكت لي أمك عن محاولاتك المجهدة لتدبير ثمن الأرض وكيف باعت (الكردان الذهبي) الذي أهداها إياه المرحوم والدك.. لتعينك في شراء الأرض.. لو كان ابن الآغا يعرف أنك ستصنع المعجزة، وتصلح الأرض لرفع ثمنها إلى الضعف..

- والله يا عمي كانت أرضاً يرتع فيها الشوك والعشب والحجارة الكبيرة.. ورغم وخزات الأشواك وثقل الحجارة التي أرهقت كاهلي، استطعت أخيراً، ودون مساعدة من أحد، أن أجعلها هكذا.. انظر إليها، إلى تربتها البنية الطرية..

- وماذا تنوي أن تزرعها؟

- نحن على أبواب الربيع.. سأزرعها بالخضراوات والبطيخ..

- هذا سيجعلك لا تغادرها يا ابن أخي.. وهي بعيدة معزولة تشرف عليها الكهوف والأحراج..

- لا يهم.. تعودت هذا الجو، وأنا لا أخاف من شيء والحمد لله..

- أتحتاج إلى مساعدة. سأرسل ابني (جابر) ليساعدك..

فكّر: جابر، «إنه في الثامنة عشرة.. سيفيدني وجوده، ثم إنه ولد ظريف..»..

- شكراً لك يا عمي..

- «والله يا ابن أخي الحالة صعبة عندنا، ولولا ذلك لما تأخرت عن مساعدتك»..

كان جابر هو أكبر أولاد العم مالك، وكانت سمية هي التالية له في العمر، إنها في السادسة عشرة.. وهي تقوم بشغل البيت تساعد أمها.. كانت الوحيدة بين تسعة ذكور، أغلبهم ما زالوا صغاراً.. وكان حمدان يحبّها.. همهم يجيب عمَّه:

- لا بأس يا عمي.. لا بأس..

- سأرسل إليك جابراً منذ الغد.. لا تتهاون معه، أريد أن يصبح فلاحاً نشيطاً مثلك.. يساعدني في العمل في أرض (الآغا)..

- إن شاء الله يا عمي..

غادره عمه مالك، وتركه غارقاً في التفكير:

- «بعد أن ينتهي موسم الخضراوات والبطيخ.. سأطلب يد سمية من عمي.. وعدتني أمي أن تساعدني في طلب يدها» رفرفت حوله طيور مختلفة الأحجام:

«ازدادت حركة الطيور.. إنه الربيع إذن.. سأنهي تقليب هذا الخط، وأعود إلى البيت».

ولكن ضجة كبيرة وصلت إليه، وهو يقلب الأرض، رفع رأسه وقد سمع وقع سنابك الخيل:

- «إنه ابن الآغا، ومعه بعض رجاله يقطعون الأحراج، سيمرون من هنا.. ترى ماذا سيكون موقفه وهو يراني وقد استصلحت الأرض جيداً»؟!..

وهذا بالضبط ما فكر به ابن الآغا:

- ها.. يا حمدان تحفر الأرض.. معقول، ما الذي صنعته؟ تبدو أرضك جيدة..

- شكراً لك يا سيدي..

- بعتها لك رخيصة.. كان يجب أن أطلب مبلغاً أكبر.. هه.. تأكد يا إسماعيل أن قياسها صحيح، قد يكون اقتطع بضعة أمتار من أرضي..

- لا يا سيدي.. إنها الأرض التي دفعت ثمنها دون زيادة شبر واحد..

- سيتأكد إسماعيل من ذلك.. (هبط إسماعيل عن ظهر الجواد وبدأ يقيس بخطواته الأرض ثم قال:

- «تبدو أكبر قليلاً يا سيدي»..

- قلت لك يا إسماعيل: سأحضر الشرطة غداً وأعيد ما أخذته من أرضي يا حمدان..

- أعوذ بالله يا سيدي.. لم آخذ شبراً واحداً زائداً من أرضك..

ابتعد ضاحكاً:

- سنرى.. يا حمدان.. هيا يا إسماعيل..

اعتلى إسماعيل حصانه وانطلقوا على خيولهم يسابقون الريح وتركوا حمدان في وضع قلق..

- «يا إلهي ماذا أفعل؟ إنه ابن الآغا.. سيزوِّر القياس كما يريد.. سأذهب إلى البيت وأحضر بندقية والدي وأحرس الأرض، لن أتخلى عن شبر منها..»..

عاد حمدان إلى القرية، كان وجهه مربداً من الغضب والقلق، حكى لأمه عن ابن الآغا وعن تهديده له بالشرطة.. فثارت ثائرتها وذهبت إلى مختار القرية تطلب النصح.. ولم يكن المختار متحرراً من سطوة الآغا.. لذلك اتهم حمدان بالتحايل.. ولكن معلم مدرسة القرية طمأنه أن (الطابو) أعطى مساحة حقيقية للأرض لا يستطيع أن يزوِّرها (ابن الآغا)، ووعده أن يساعده في ذلك.. وقبل أن يمر اليوم، وبعد غروب الشمس كان حمدان

قد أحضر فراشاً رقيقاً وأغطية، لينام في الأرض ومعه بندقية، مصمماً على الدفاع عن أرضه.. انتقى فسحة من الأرض مهدها جيداً وفرشها بالعشب ووضع فوقها الفراش.. ثم اضطجع يلف (سيكارة) وهو قلق من الغد.. ومر الوقت ثقيلاً بطيئاً.. واستبد به الخوف والظلام يغمر الكون.. سمع وقع سنابك خيول تقترب من الأرض.. اختبأ جيداً حتى لا يلحظه أحد، سمع صوت إسماعيل:

- لا أرى أحداً نحن وحدنا الآن..

- هيا ننفذ ما قاله لنا سيدنا.. أرض حمدان منطقة الأحراش، ونضع علامات جديدة عليها.. وتصبح أرض حمدان كلها ضمن أرض الآغا..

همهم حمدان:

- هكذا إذن.. والله لن أدعهما يفعلان شيئاً.. (واندفعت أصوات الوحوش المزمجرة):

- أتسمع؟ المنطقة مليئة بالثعالب والذئاب وربما بالضباع..

- لماذا لم تحضر بندقية من بنادق الآغا..؟

- لم يعطني بندقية حتى لا أغضب وأقتل حمدان بها، إن تعرض لنا..

- ألم يخطر ببال سيدنا أن حمدان قد يكون مسلحاً؟

- وأين حمدان؟ ما الذي سيأتي به إلى هنا؟ (وازدادت الضجة بين الشجر وتعالى عواء الذئاب)..

- ما هذا يا إلهي.. كأن المنطقة محاطة بالوحوش..

- حتى الطيور تحركت من مكانها..

- إسماعيل انظر هناك، إنه شبح مكلل بالسواد يتجه صوبنا..

قال إسماعيل بذعر: انتظرني سنذهب سوية.. آه.. إنه يجري نحونا.. يبدو عملاقاً مخيفاً.

كان حمدان هو المتقدم. فَكَّر:

- ما داما خائفين إلى هذه الدرجة، لن أطلق النار عليهما..

- «هيا إلى مكان الحصانين.. عجل إنه وراءنا» (ورفرفت طيور الليل فوقهما)..

- أفلت الحصان من يدي.. إنه يجري بعيداً.. لا أستطيع أن ألحق به..

قال الرجل الآخر: أمسكت بمقود الحصان تعال معي.. آه.. الحصان ينطلق.. أتتبعني يا إسماعيل.. أنا أمسك المقود.. سأمتطي ظهر الحصان.. عجِّل..

كان إسماعيل مذعوراً:

- الشبح ورائي.. إنه يقترب.. آه..

ووسط ذعر الرجلين وهربهما.. وإسماعيل يحاول اللحاق بالرجل الآخر.. الذي يمسك مقود الحصان، عاد حمدان إلى فراشه.. وهو سعيد.. ولم يستطع أن ينام في تلك الليلة..

لم يستطع إسماعيل اللحاق بالرجل الذي تمكن بعد مسافة طويلة من السيطرة على الحصان وامتطائه، ولم يسمع صوت إسماعيل خلفه، فاستمر يقود الحصان في اتجاه القرية. أما إسماعيل فسقط لشدة الظلام.. فوق صخرة قرب الأحراج وفقد الوعي.. وظل حمدان مستيقظاً حتى بزغت خيوط الفجر.. لفَّ فراشه جيداً وربطه.. ووضعه بين الأعشاب الطويلة.. وأخذ يتفقد المنطقة..

- الأرض تبدو هادئة.. كان مجيء الرجلين في الليل أطلق الذئاب من عقالها.. جيد أنني تسلحت ببندقية.. ما هذا؟ ماذا أرى؟ إنه إسماعيل، يبدو نائماً.. سأوقظه برأس البندقية.. إسماعيل.. انهض.. هيا.. إنه لا يتحرك.. هه.. ماذا أرى؟ وجهه ويداه مليئتان بالثقوب الدامية.. يا إلهي.. إنه ميت.. ماذا أفعل.. سيتهمونني بقتله.. هه ومن سيتهمني؟ لم يرني أحد أمس.. سأعود

إلى البيت كأن شيئاً لم يكن.. أمي هي الوحيدة التي تعرف أنني خرجت لأحرس الأرض..

قالت له أمه بعد أن كاشفها بما حصل:

- لا بأس يا بني.. لن يعرف أحد أنك نمت خارج البيت.. هل رآك أحد في الطريق إلى هنا؟

- جئت بين المناطق المنعزلة.. تعمدت ألا يراني أحد..

- حمداً لله، إنك لم تطلق النار.. يبدو أن الرعب قتل إسماعيل..

- ولكن تلك الثقوب في وجهه ويديه.. ثقوب غير طبيعية.. كأنما تعرض لوخز من أشواك حادة بشكل منظم، لا يمكن أن يكون ذلك بسبب وقوعه على الأشواك.. كان جسده بعيداً عن منطقة الأشواك..

- «لا نعرف ماذا سيتصرف ابن الآغا.. على كل حال، لن تذهب من هنا إلى الأرض حتى ينجلي الموقف لنا.. اذهب الآن ونم، يبدو وجهك متعباً..» تابعته وهو يمشي متعباً:

- «يا رب، احمه وخذ بيده لينتصر في قضيته العادلة على الآغا..».

كان ابن الآغا يدور بين رجاله غاضباً:

- أين إسماعيل؟ لماذا لم يعد حتى الآن؟

- سيحضر رفيقه، ويحكي لك القصة.. إنها مرعبة، لا تصدق، يا سيدي..

- ما هذا الجبن؟ لماذا لم يأتِ هو؟

- حين يعود سنأتي به لمقابلتك يا سيدي؟ هه حضر الرجل..

دخل الرجل مرتبكاً:

- نعم يا سيدي؟

- كنت مع إسماعيل أمس؟

- نعم يا سيدي.. ويا ليتنا لم نذهب..

- ماذا جرى؟ أين إسماعيل؟

- ذهبنا أمس لنفعل ما أمرتنا به، وحالما ربطنا الحصانين واتجهنا نحو أرض حمدان بدأت الوحوش تتحرك حولنا، والطيور تخفق بأجنحتها.. لم نخف في البداية، ولكن الأشباح ملأت المنطقة، واقتربت منا، وهي تطلق أصواتها المخيفة، أشباح عملاقة سود تطلق الشرر.. خفنا يا سيدي.. وعدنا إلى مكان الحصانين، أفلت حصان إسماعيل خائفاً وانطلق يجري..

- نعم .. أكمل ..

- لم أستطع السيطرة على حصاني الذي انطلق يجرني معه وخلفنا إسماعيل لمسافة طويلة، حتى تمكنت من السيطرة عليه وامتطاء ظهره.. عدت أبحث عن إسماعيل، وسط الوحوش والطيور والأشباح فلم أعثر عليه، حتى كادت الأشباح تطالني وتقصم ظهري فهربت بعيداً..

- أنت تكذب.. أنت لم تبحث عن إسماعيل، ولم تعد إلى منطقة الأرض.. أين هو إسماعيل؟ إنه الوحيد الذي سيفسر لنا المسألة، إنه ليس جباناً مثلك.. سأعاقبك بالحبس والضرب إذا ثبت أنك قصرت في واجبك.. هيا ابحثوا عن إسماعيل.. وسيرافقكم هذا الجبان، يجب أن تعثروا عليه بأية وسيلة..

- حاضر يا سيدي..

هزَّ رأسه ساخراً - قصة غريبة لا يصدقها عاقل ..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

رأته أمه يتقلّب..

- لم تستطع النوم يا حمدان؟

- رغم أنني متعب، ما زال مشهد إسماعيل بوجهه المثقوب المدمى ويديه، يلاحقني..

- «لا تقلق يا بني، إن شاء الله، خير»، وطرق الباب عليهما، أمسكته.. قال:

- سأفتح أنا الباب يا أمي..

- «ابقَ ممدّداً في فراشك سأفتح الباب» كان أحد رجال الآغا:

- الآغا يريد أن يرى حمدان..

- لماذا؟ ماذا تريدون منه؟ إنه مريض ممدد في الفراش.. انظر إليه - تعال.. (أدخلته إلى حمدان المُمدد على الفراش - ماذا تريدون مني؟)..

- الآغا يريد أن يراك..

قالت الأم - قل له: إنه مريض لا يستطيع الحركة.. ألا تراه؟

- طيب..

- لماذا يريد أن يراه؟ يريد إلحاق الضرر به ليقتنص أمتاراً من الأرض الذي تعب فيها ابني وبذل جهداً كبيراً حتى أمرضه ذلك الجهد.. انظر إليه يا عيني.. حالته تقطع القلب.

- «سأخبر الآغا..» أقفلت الباب وراءه:

- على الأقل لن يتهمك أحد بقتل إسماعيل.. من يرى وجهك المتعب يقتنع بمرضك فعلاً..

- ما الذي سيتصرفه ابن الآغا الآن؟..

- أجارنا الله من ظلمه.. حاول النوم يا ولدي.. حاول..

تقلب قلقاً:

- آه.. سأحاول..

☆ ☆ ☆

وحكى الرجل ما شاهده في بيت حمدان:

- إنه مريض يا سيدي.. لم يذهب إلى مكان اليوم.. رأيته، وجهه متعب مصفر.. ويتحرك بإعياء بالغ..

- ما الذي حدث لإسماعيل؟ إنه حادث محير؟

- الجان يا سيدي، انتقمت منا لأننا أردنا تغيير الخط وأخذ أرض حمدان..

- ما هذا الهراء؟ أغلق فمك..

- صدقني يا سيدي، حمدان صديق للجان كما يبدو.. لن يتركونا نتصرف كما نريد..

- ستذهبان في الليل لتنفيذ ما طلبته منك ومن إسماعيل..

قال أحدهما:

- اقتلني يا سيدي ولا ترسلني إلى هناك، لن أذهب أبداً.. يكفي ما حدث لإسماعيل..

- حسناً سأرسل أربعة رجال مسلحين بالبنادق.. يجب أن تنفذوا ما طلبته منكم.. هيا..

- أرجوك يا سيدي اعفني أنا من المهمة.. لا أريد أن أموت..

- ستذهب معهم يعني ستذهب معهم..

- وماذا سنفعل بإسماعيل؟

- ليدفن في مكان لائق سأخرج بنفسي في جنازته، هل أعلمتم أهله؟

- ليس بعد..

وهكذا دفن إسماعيل.. واستعد الرجال الأربعة في تلك الليلة مسلحين بالبنادق للذهاب إلى الأرض، وتغيير الخطوط كما طلب ابن الآغا..

☆ ☆ ☆

- ٣ -

انتشرت إشاعة الجان في القرية، وأن (حمدان) له أخ من الجان يساعده.. ووصلت الإشاعة إلى بيت حمدان فضحك في سرِّه.. وذهب قبل مغيب الشمس إلى بيت عمه.. أعطته ابتسامة سمية القوة والتفاؤل، وطلب من جابر أن يلحق به إلى البيت.. عرف أن ابن الآغا لن يستسلم لموت إسماعيل، فصمم على الذهاب ليلاً إلى الأرض ومعه جابر..

- قد تهاجمنا الذئاب..

- لا تخف.. البندقية جاهزة للإطلاق.. المهم إن حضر أحد سنتصدى له كما فعلت الليلة الماضية.. سيعتقدون الآن أن الجان هاجمتهم..

- لذلك أحضرت هذين الغطاءين الأسودين؟

- هل أنت خائف؟ لم أحضر غطاءين فقط.. أحضرت أربعة أغطية.. لم تقل لي.. خائف؟

- لا.. معك لا أخاف، وبعد مدة سمعا وقع حوافر الجياد، وهمس حمدان:

- يبدو أن الآغا أرسل رجالاً هذه الليلة أيضاً.

- عدة رجال كما يبدو.. قد يكونون مسلحين بالبنادق؟

- بالطبع.. يجب أن نكون حذرين.. حين يربطون الخيول سأتسلل وأطلق الخيول من عقالها وأعود إليك بسرعة.. لا تخف يا جابر سنفاجئهم..

كان رجال الآغا يتبادلون الحديث بخوف..

- يا إلهي.. أشعر أن عيوناً حولي تلاحقني..

- هل تظن أنني راضٍ عن المجيء، ولكن ماذا ستفعل، الآغا أمرنا، يجب أن نطيع أمره..

- اربطوا الخيول هنا، واحتفظوا بالبنادق معلَّقة على أكتافكم.. هيا..

- هه.. أكاد أموت من الخوف..

- همس حمدان إلى جابر:

- إنهم يتحركون في الاتجاه الآخر من الأرض كما توقعت.. سأتسلل لأطلق الخيول من عقالها..

- انتبه يا حمدان..

- لا تخف.. سأعود إليك سريعاً.. هل العصي الطويلة جاهزة؟

- نعم.. اذهب بسرعة وأطلق الخيول من عقالها..

- طيب..

كان رجال الآغا قد انتشروا..

- لا تبتعد عني.. سأقوم بتغيير الخط..

- أنا معك لا تخف.. ما هذا؟

- الخيول إنها تجري..

- كيف انطلقت من عقالها.. يا إلهي..

غمغم الرجل بذعر - قلت لك.. لم تصدقني.. آه.. يا إلهي.. انظر هناك.. ماذا ترى؟

- عملاق أسود طويل.. هناك عملاق آخر.. عملاق ثالث.. رابع..

- تحرك الجان للانتقام منا.. آه..

- الحقوا بالخيول يا رجال.. واركضوا،، لا طاقة لنا على منازلة الجان.. سأطلق النار في اتجاههم..

- سينتقمون منك صدقني.. ثم إن صوت الطلقات سيجعل الخيول تهرب بعيداً.

- «يا إلهي ما أطولهما.. كأنهما يطيران» صوب بندقيته وأطلق النار «الرصاص لا يؤثر فيهما.. آه.. يا إلهي..»..

- «قلت لك».. واندفعوا يركضون في كل اتجاه.. همس حمدان ضاحكاً:

- الحمد لله نجحنا..

- الآن فهمت لماذا أحضرت العصي والأغطية السود.

- نضع الغطاء فوق العصا ونرفعه، في الظلام يبدو عملاقاً مكللاً بالسواد، يتحرك..

- فهمت.. إنها فكرة ذكية..

- هربوا.. ولن يعيدوها.. هيا نستعد للعودة من الطريق التي رسمناها لعودتنا..

- هيا يا ابن العم..

☆ ☆ ☆

- ٤ -

نجحت خطة حمدان.. وفي تلك الليلة أيضاً مات أحد رجال الآغا، وكان وجهه مغطى بالثقوب، وكذلك غطت الثقوب المدماة يديه ورجليه.. ولم يعرف أحد السر..

انتشرت إشاعة أن حمدان له علاقة بالجن، وبعد أن توسل رجال الآغا إليه ألا يرسلهم في مأمورية أخرى في الليل.. قرر ابن الآغا الانتظار قليلاً.. وهكذا استقرت الأمور وزرع حمدان حقله بالخضار والبطيخ، ولم يستطع فهم سر الثقوب التي غطت وجه إسماعيل ويديه ورجليه.. ولم يرَ أيضاً أي شيء غير عادي.. وأرجع ذلك إلى العناية الإلهية التي ساعدته في الانتصار على الظلم..

وعندما بدأت الأرض تنتج الخضار، والبطيخ تكبر ثماره، نصب خيمة في وسط الحقل لحراسته.. وفي ليلته الأولى في الحقل..

- هذه المرة الثانية التي أنام فيها هنا، بعد تلك الليلة المخيفة..

وهذه المرة على الأقل يرتفع فراشي عن الأرض نحو المتر والنصف.. بندقيتي جاهزة.. يجب أن أكون حذراً..

بدأ نسيم الليل يداعب النباتات والأشجار الصغيرة، سمع وقع أقدام..

- هذا غير معقول، يبدو أن الخوف بدأ يستبد بي.. ما هذا يا حمدان؟ أمعقول أن تخاف؟ كيف ستحرس حقلك من اللصوص ورجال الآغا، إذا استبد بك الخوف؟ سأقوم بجولة أتفقد فيها الأرض ثم أعود..

علق حمدان بندقيته في كتفه وتجول في الأرض وحولها عدة مرات.. فلم يرَ شيئاً، وزال عنه شعور الخوف شيئاً فشيئاً..

- أنا متعب ويجب أن أنام.. مع أول تباشير بيع منتوج الحقل، ستتقدم أمي لخطبة سمية، وعدني جابر أن يشاركني النوم منذ الغد.. آه..

ورأى حلماً مزعجاً:

- «يا إلهي.. كأنني بين الأحراج.. هناك شبح مكلل بالسواد.. إنه يقترب مني..» كان إسماعيل الذي كشر أسنانه:

- حمدان سأقتلك.. لن أدعك تهنأ بأرضك..

– ابتعد عني يا إسماعيل..

قهقه إسماعيل ضاحكاً:

– ستستعين بالجان.. أرى وراءك عملاقاً من الجان.. لا .. أرجوك لن أفعل شيئاً.. لا.. لا.. (واختفى إسماعيل)..

استيقظ حمدان مرعوباً:

– بسم الله الرحمن الرحيم.. كان كابوساً..

نظر حوله:

ما زال الوقت مبكراً على الفجر.. (سمع أصوات خفق الأجنحة)..

«إنها الخفافيش.. طيور الليل الشبيهة بالفئران المجنحة.. لا خوف منها.. الجو حار سألقي الغطاء قليلاً عن رجلي»..

صحا حمدان على برودة الصباح، فغطى رجليه وتابع نومه حتى ملأ ضياء الشمس خط الأفق.. تحرك قليلاً فشعر أن حيواناً متعلقاً برجله تحت الغطاء.. وحين ألقى الغطاء بعيداً، سمع صرير الحيوان الذي اندفع طائراً مبتعداً.. كان خفاشاً أو وطواطاً تعلق برجله المكشوفة.. وحين شعر ببرودة الصباح غطى نفسه، وألقى الغطاء فوق الحيوان الذي لم يتحرك.. كان خيطاً من الدم يسيل من رجله، تملكه العجب:

- ما هذا؟ إنه ثقب في أسفل القدم.. الدم يسيل منه.. يا إلهي.. كأنما نهشت رجلي بأسنان حادة فتحت فيها ثقباً تسيل منه الدماء.. معقول؟ هل فعل الوطواط ذلك؟ الذي أعرفه أن الوطاويط غير مؤذية.. هذا يفسر لي سبب الثقوب التي ملأت وجه رجلي ابن الآغا وأطرافهما.. يجب أن أكون حذراً بعد الآن.. في الخيمة فتحات كبيرة سأسدها.. وسأغطي نفسي جيداً بغطاء رقيق.. يا إلهي.. معقول..؟

استبدت الحيرة بحمدان.. وخاف على نفسه من الوطاويط التي تمص الدماء.. ولكن رؤية الخضراوات والثمار، قوت من عزيمته فعاد إلى ثقته، وقد صمم ألا يدع الخوف يؤثر عليه، وقد حان وقت الحصول على إنتاج المحصول، وطافت صورة سمية ابنة عمه في خاطره فأعطته عزماً إضافياً على الصمود.. وفي الليلة التالية طلب حمدان من جابر.. أن يغطي نفسه جيداً.. وقد نصب له سريراً قرب سريره في الخيمة التي حرص أن يسد فجواتها جيداً.. ووضع على بابها غطاء ربطه أيضاً.. ولم تحدث حادثة لعدة أيام أخرى.. ولكن ذلك لم يطل كثيراً.. فقد صحا في أحد الأيام..

- آه.. يبدو أن غطاء الخيمة قد رفع.. آه.. هناك نقطة دم على وجهي.. يا إلهي.. هناك ثقب في قدم جابر.. إنه لا يشعر ما زال نائماً.. سأمسح الدم، وأضع بعض التراب الرّطب فوقه.. (هزَّ جابر يوقظه).. جابر.. طلعت الشمس..

- صباح الخير - .. يبدو أنك مجروح في رجلك.. سأضع بعض التراب الرطب عليها..

- مجروح؟ كيف؟ لا أشعر بالألم..

- لا عليك، جرح صغير.. هل أنت من رفع غطاء باب الخيمة؟

- نعم.. ذهبت في الليل في جولة في الحقل.. وعدت، كانت الحرارة خانقة هنا لذلك رفعت الغطاء..

- لا تفعل ذلك مرة ثانية.. قد يتسلل حيوان أو وحش إلينا ويهاجمنا..

- هل تخاف؟

- ليست قضية خوف يا ابن العم.. نحن نتعب في النهار..

- يجب أن نكون حذرين.. قد يتسلل اللصوص إلى الحقل ولا نشعر أيضاً..

ولم يجد حمدان بداً من إخبار جابر بقصة الوطاويط.. وطمأنه أنه ما دامت الفتحات في الخيمة مسدودة جيداً، فلا خوف من الوطاويط.. ولكن جابراً عرض عليه فكرة التخلص منها.. فهي تلجأ للكهوف والمغاور، ولا بأس من إشعال نار هناك، وسدّ

باب الكهف أو المغارة حتى تختنق وتموت.. أعجبته الفكرة.. ورغم خوفه من تكاثر الوطاويط ومهاجمتها له.. فلقد بدأ مع جابر بتنفيذ الفكرة.. ولاقى صعوبة في سدِّ باب الكهف الواسع الذي لا يبعد كثيراً عن الحقل.. ونجحت الفكرة إلى حدٍّ ما.. وكأن تلك الحيوانات الصغيرة بعد المجزرة التي نفذها فيها حمدان وجابر، قد شعرت أنها يجب أن تبتعد عنهما حتى لا يعاودا مهاجمتها من جديد.. وهكذا عاش حمدان وجابر بسلام تلك الليالي الحارة.. وقبض حمدان لأول مرة شيئاً من ثمن محصوله، نبهته أمه ذات يوم:

- اقترب موعد عرسك يا حمدان.. وأنت لم تشتر الجهاز بعد..

- سأذهب مع عمي وسمية غداً إلى المدينة.. وسيبقى جابر في الحقل..

- عظيم .. ألا تريد أن أرافقك؟

- بالطبع يا أمي.. أتمنى ذلك..

- حسن يا ولدي.. نسيت أن أقول لك: إن المختار جاءني في الصباح، وأبلغني أن ابن الآغا قدم شكوى إلى المحكمة يتهمك فيها بالاعتداء على أرضه..

- لا بأس يا أمي.. لست خائفاً من ابن الآغا.. أخبرني معلم المدرسة أن (الطابو) قانوني..

هزت الأم رأسها:

- إن شاء الله، ستفشل محاولاته، لقد دفعه الجشع وهو يرى أرضك التي استصلحتها بتعبك وعرقك تعطي هذا الإنتاج الوفير.. قاتله الله..

- لا تهتمي يا أمي بذلك.. الله معنا..

في تلك الليلة طلب حمدان من أحد رجال الآغا.. أن يبلغ سيده ألا يحاول الاعتداء على أرض حمدان من جديد.. فسيكون الانتقام كبيراً.. ويجب ألا يستهتر بموت الرجلين حتى لا تتكرر المأساة التي قد تصيب ابن الآغا نفسه.. وبالطبع نقل الرجل الحديث إلى سيده.. وبعد تردد طويل قرر التراجع عن فكرة متابعة المحكمة.. وقد أثر فيه تهديد حمدان.. وهكذا حمى حمدان نفسه..

☆ ☆ ☆

إن الوطاويط التي تمص الدماء هي حقيقة وليست خرافة أبداً.. وهذه الوطاويط لا تظهر إلا في الليل، يتسلل واحدها إلى خيمة أو حجرة مفتوحة النافذة في أمكنة قريبة من الكهوف والمغاور والأماكن المهجورة حيث ينام الإنسان.. فيبحث عن

موقع مكشوف من جسمه كقدم أو ذراع، أو وجه.. يقضم بأسنانه الأمامية الحادة (خرماً) مستديراً في الجلد بقطر نحو ثلاثة ملمترات وعمق ملمترين، ولا يشعر بذلك النائم. ويقول العلماء: إن الوطواط يفرغ من فمه سائلاً مخدراً لذلك لا يشعر الإنسان به، وهو يمتص دمه الذي يسيل أيضاً بعد أن ينتهي الوطواط من وجبته الدافئة.. وهذا ما فسر سبب موت رَجُلَيْ الآغا.. فحين سقط إسماعيل مغمى عليه تكاثرت عليه الوطاويط تمتص دمه وكذلك بالنسبة إلى الرجل الآخر.. ولم تفسر العملية عند حمدان إلا بعد سنوات حين قرأ ابنه شيئاً عن ذلك، وقد وجد منطقة الأرض تعجُّ بالوطاويط التي تكاثرت من جديد.. وللوطاويط أنواع كثيرة منها ما يتغذى بالفواكه والحشرات الصغيرة.. وأخطرها الوطاويط التي تتغذى بالدماء الدافئة..

☆ ☆ ☆

صندوق الحكمة

«.. واكتشفت فيما بعد أن العقار المنشِّط للخلايا الدِّماغيّة كان له أثر سلبي على الأولاد؛ إذ جعلهم بلا عاطفة.. يتعاملون بحيادية مع أقرب الناس إليهم.. ولم يعش زوجي حتى عام (١٩٠٥) كما كان يتوقَّع.. أما أنا فلكثرة العقارات التي أخذتها، بدأ التشوُّه يغزو جسمي، حيث أصبحت شيئاً فشيئاً كتلة مشوَّهة المعالم.. واكتشفت أنني لو تناولت العقار المنشِّط لخلايا الجسم الأخرى لما حدث لي ما حدث.. وهكذا بدأت أذوي وأعتكف بعيداً عن الناس..»..

صندوق الحكمة

يؤكد العلماء.. «أن مقدرة الإنسان على التركيز الذهني تتراوح بين الدرجات الدنيا في التركيز، تلك التي تتناول حصر الفكر في الأعمال اليومية والشؤون العاديَّة.

والدرجات العليا القادرة على اجتراح ما يدعى بالأمور الخارقة.. التركيز الذهني هو مقدرة حصر الوعي ضمن موضوع محدَّد ولفترة معينة، سواء كان الموضوع فكرة معنويّة، لا منظورة أو شيئاً منظوراً محسوساً..».

مقدرة التركيز هذه يمارسها وعي الإنسان نفسه، وهذا لا يتم دون تنفيذ من الدماغ، إذ إن الدماغ هو الآلة المنفذة لإرادة العقل والتركيز الذهني..

إذن بالتركيز يمكن للإنسان أن يصبح خارق الذكاء؟ لولا المشاكل والمتاعب التي يمر بها الإنسان، لكان تركيزه - الذهني -

ذا مستوى يؤهله لبلوغ الدرجات العليا واجتراح ما يدعى بالخوارق..

إن الذكاء هبة وهبها الله عزَّ وجلَّ للإنسان.. وبالتركيز يصبح هذا الذكاء ملموساً، يقفز به الإنسان إلى أعلى درجات المعرفة..

قد تعيق مشاكل الحياة وهمومها هذا التركيز.. ليكمن الذكاء دون أن يخرج إلى النور..

قد يؤثر ذلك كثيراً في قدرات الإنسان واكتسابه للمعرفة.. ولكن بعض النماذج البشرية قد تكون أقوى من كل الهموم والمشاكل.. إنها نماذج قليلة العدد كما نعرف..

سنحكي عن نموذج تبدو حياته غريبة غير قابلة للتصديق.. ولكنها حدثت.. كان حدوثها أمراً أشبه بالخيال..



- ١ -

منذ أن تفتَّح وعي عادل، وهو يعاني ظروفاً بالغة التعقيد.. كان في الثانية من عمره حين توفي والده، وقد كفلته خالته التي تعيش مع زوجها دون أطفال.. بعد أن أجبرت والدته على التخلِّي عنه مقابل قطعة واسعة من الأرض..

كان أصغر إخوته وأخواته.. وكان عددهم سبعة..

لم يكن أمام الأرملة المسكينة، أم عادل، سوى التضحية بأصغر أبنائها بعد أن اطمأنت أنه بين أيدٍ أمينة..

وفي السابعة من العمر.. أدخل عادل إلى مدرسة القرية، كان ذلك عام ١٩٥١..

جلست أم عادل الجديدة مع زوجها يتحادثان حول مستقبل عادل:

- أتعلم يا عرفان، عادل سيحقق مفاجأة غداً حين يمتحنه معلم المدرسة..

- كيف يا سامية؟

- إنه يتقن القراءة والكتابة وخطّه جميل ويعرف جدول الضرب..

- ولكنّ القانون صريح من هذه الناحية، لا يدخل الطفل المدرسة قبل أن يتمَّ السابعة من عمره، إنه قانون أورثتنا إياه فرنسة..

- قلبي يحدثني بشيء آخر.. إذا كان المعلم إنساناً واعياً متفهماً.. سيضع عادلاً في صف آخر غير الصف الأول..

- إن شاء الله.. إنه ابننا الآن..

تمتمت متنهِّدة:

- لو ولدت صبياً من صلبي، لم أشعر بمحبته كما أحب عادلاً.. إنه طفل طيِّع، وديع، خارق الذكاء..

- الحمد لله..

قطع عليهما حديثهما دخول عادل الصغير:

- أنا جائع، يا أمي..

- الأكل جاهز يا حبيبي.. تفضَّل سأضع الصحون على المنضدة..

- ألن تأخذني إلى البستان بعد الظهر يا أبي؟

- نعم.. أنا عند وعدي..

- شكراً لك يا أبي..

☆ ☆ ☆

وبعد الظهر خرج عرفان إلى البستان، ومعه عادل الصغير:

- ابقَ قريباً مني يا بني.. سأقلّم بعض الأشجار..

- لا تقلق لن أبتعد عنك..

ابتعد قليلاً:

- من هذه المرأة التي تجلس تحت شجرة التين هناك؟ سأقترب لأرى..

كانت امرأة متقدمة في السن تجلس متقوقعة على نفسها كلمته بصوت متعب:

- أهلاً بك أيها الصبي.. ماذا تفعل وحدك هنا؟

نظر عادل إليها بعمق، فَكَّرْ:

- «يبدو وجهها مشوَّهاً.. سبحان الله»..

- لم تجبني ماذا تفعل وحدك هنا؟

قال الصبي بارتباك:

- لستُ وحدي.. من أنت وماذا تفعلين هنا؟

- أتمدد.. أستريح، هل هذا ممنوع أيضاً..

أجهشت بالبكاء:

- ليتني أموت وأنتهي من هذه الحياة، الكل يبتعد عني، يشعر بالقرف ولا يطيق النظر إليَّ.. هه.. ألا تشعر بالقرف أنت أيضاً أيها الصبي؟ أنا مشوهة.. المرض شوَّهني..

- لا عليك.. لست خائفاً منك.. ولا أشعر بالقرف من تشوُّهك..

ابتسمت وهي تمسح دموعها:

- الحمد لله.. خذ هذه التفاحة وكلها.. أعطتني إياها صبيّة جميلة قبل ساعة.. لا أستطيع أن آكلها ليست لدي أسنان.. تفضل..

قال عادل:

- يمكنك تقشيرها.. وسلقها فتصبح سهلة الأكل..

- لا أريدها.. خذها يا بني.. أنت ولد طيب..

- شكراً لك..

سمع صوت والده يصرخ:

- عادل.. عادل.. أين أنت؟

- أنا هنا يا أبي.. أنا قادم..

غمغمت العجوز:

- إنه ولد طيب..

تابعته وهو يختفي بين الأشجار، سأله عرفان:

- أين كنت، لم أرك قربي؟

- كنت في طرف البستان.. قابلت امرأة عجوزاً..

- امرأة عجوز؟ في طرف البستان؟

- إنها مشوَّهة الملامح، مريضة بمرض صعب كما قالت لي، كل الناس ابتعدوا عنها، كانت تبكي وتتمنَّى الموت لنفسها..

غمغم الأب مواسياً:

- مسكينة أم صالح، تعذَّبت كثيراً..

- أتعرف قصتها يا أبي؟

- بالطبع يا بني.. إنها قصة مؤسِيَة.. ما الذي تحمله في يدك؟ تفاحة؟

- نعم.. أصرَّت العجوز أن آخذها..

- يا إلهي.. لا تأكلها، يجب أن تغسلها جيداً.. ماذا أقول؟ المرأة مريضة، ومرضها ينتقل بسرعة..

- ألن تحكي لي قصتها يا أبي؟

- في وقت آخر.. ساعدني بالإمساك بهذا الغصن.. ضع التفّاحة في جيبك..

وفي اليوم التالي خضع عادل للاختبار في المدرسة، أدخل المعلم عدة أطفال وبدأ يلقي أسئلته عليهم:

- نأتي الآن إلى الكتابة، هيّا لنبدأ الكتابة من عندك..

كان عرفان قلقاً:

- «ما زال الصبي ينتظر دوره.. المعلِّم دقيق في اختباراته»..

- واشترى فواز الأقلام والدفاتر.. الأقلام.. الأقلام.. لا تعرف أن تكتب الأقلام.. قف هنا.. وأنت.. أكمل الكتابة.. نعم.. الأقلام.. لا.. ليس هكذا.. تعال أنت أيها الصبي..

رمقه عرفان من الخارج:

- إنه دورك، عادل..

كتب عادل كلمتي الأقلام والدفاتر:

- صحيح.. لو كان لدينا خمسة دفاتر جمعنا إليها خمسة دفاتر أخرى كم يصبح المجموع؟

- (١٠) هذا سؤال بسيط يا أستاذ..

- تريد أسئلة أصعب.. عجيب.. لا بأس..

كان الصبي كما يبدو واثقاً من نفسه، وبعد نحو نصف ساعة خرج المعلم يزف الخبر لعرفان:

- نجح ابنك في اختبار الصف الأول والثاني والثالث.. إنه ذكي سأستثنيه وأضعه في الصف الثالث..

- شكراً لك.. أتعتقد أنه ملائم لذلك؟

- بالطبع.. وسيخرج بنتيجة جيِّدة أيضاً..

- الحمد لله..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

وهكذا بدأ عادل أعوامه الدراسيّة متفوقاً.. وكان يتردَّد كل فترة على الغرفة المنعزلة التي تعيش فيها (أم صالح) يحضر لها الطعام والفواكه أحياناً..

كان الصبي طيِّب القلب، حسّاساً، شديد العاطفة، وكان يرى أن تلك العجوز الوحيدة التي تتعذَّب في مرضها بعيداً عن اهتمام الناس، لها عليه حقّ المساعدة.. ولم يكن والده يمانع في مساعدتها.. هكذا مرَّت السنوات، وعادل ينمو ويكبر، وفي أحد الأيام قالت سامية لعرفان:

- ترهق نفسك كثيراً في العمل يا عرفان، لماذا؟ حالتنا جيِّدة، والحمد لله.. لا داعي لذلك..

- أريد أن يتعلَّم عادل أهميَّة العمل بالنسبة للإنسان، إنه يرافقني بعد الظهر.. ويساعدني في عملي أيضاً.

- جاءت أختي في الصباح وأبلغتني شوق الأولاد لرؤيته..

- بدأ ينسى علاقته بها وبإخوته..

- قلت لها ذلك.. إنه يعتقد الآن أنه ابننا حقيقة.. بكت قليلاً، ثم طلبت مني مبلغاً من المال.. فأعطيتها.. مسكينة أولادها يرهقونها بطلباتهم الكثيرة.. أين عادل الآن؟

- ذهب لزيارة (أم صالح) كي يودعها.. ستدخل المستشفى غداً.. مسكينة..

- كيف حصل وقرّرت الدخول إلى المستشفى؟

- أقنعها بعض أولادها أن الحياة في المستشفى أفضل لها، وسيعتنون بها جيداً، وهناك من يؤنس وحدتها..

- هذا أفضل لها بالطبع..

فتح عادل الباب ودخل:

- مساء الخير..

- أهلاً بك يا ولدي.. هه.. وَدَّعت أم صالح؟

- المسكينة حالتها تقطّع القلب، وعدت أن أزورها في المستشفى حين أجد الوقت المناسب..

- أنت في الرابعة عشرة الآن.. لديك امتحان الشهادة هذا العام..

- لست خائفاً من الامتحان يا أبي.. أنا واثق أنني سأحصل على نتيجة مشرّفة..

- إن شاء الله.. إن شاء الله..

تمتمت سامية:

- «يا رب، اجعلني أرى عادلاً ابني في أحسن المراكز.. يشار إليه بالبنان»..

ردَّد عرفان:

- إن شاء الله.. إن شاء الله.. جهزي لنا العشاء.. عادل جائع أيضاً..

- دقائق ويكون كل شيء جاهزاً..

ونال عادل الشهادة الإعداديّة بتفوّق، وفي صيف ذلك العام، كان عادل يتجول في البستان مع والده، وقد مرض عرفان بعض الوقت ثم أبلّ من مرضه:

- ألا ترى الطيور الملوّنة فوق الأشجار، إنها أول مرّة أرى فيها مثل هذه الطيور؟؟

- رأيتها كثيراً من قبل.. عندما آتي إلى هنا في فترة التحضير للامتحان..

- عجيب كيف لم أنتبه لذلك..

تنهَّد عادل:

- يجب أن تتمشّى كل يوم فترة ساعة على الأقل.. هكذا نصح الطبيب..

- أمشي يومياً مسافة كبيرة، ربما أكثر من ساعة، لا تقلق من هذه الناحية؟؟

- يجب أن تنتبه لنفسك يا أبي.. المرض ليس سهلاً..

- معك حق..

- لو لم أجبرك على مغادرة البيت ما أتيت إلى هنا وتمتعت بمنظر هذه الطيور..

- أشعر برخاوة كبيرة في جسمي بعد إصابتي بذاك المرض اللعين.

- ستتحسن إن شاء الله لا تقلق..

وفجأة وصل إلى سمع عادل صوت أنين العجوز أم صالح:

- أتسمع يا أبي؟

- ماذا؟

- إنها تأوهات.. كأنها العجوز أم صالح..

- أم صالح؟ أين نحن، وأم صالح الآن؟ إنها بعيدة عنّا في المستشفى..

- تعال نتمشى في هذه الناحية..

- لماذا أحضرتني عبر هذه الطريق الوعرة؟

- أم صالح يا أبي.. قابلتها هنا أول مرّة.. نعم.. كانت تجلس على هذه الصخرة..

- أعانها الله في محنتها..

فكر عادل مذهولاً:

- كأنني أراها تئن على الصخرة.. يا إلهي..

- ما بك يا بني، إنك تحدق نحو الصخرة بإشفاق بالغ.. ماذا هناك؟

كان عادل يفكر:

- يا إلهي.. إنها أم صالح تتألم..

وصل إليه صوتها متكرراً برجيعه كأنه الصدى:

- «عادل يا بني .. أنا أموت.. آه..».

فكَّر مستغرباً:

- أمعقول ألا يراها أبي؟

كان عرفان يرمقه بحزن:

- ماذا جرى للفتى؟ إنه منذهل حزين، كأنه يرى شيئاً مأساوياً..

- ألا تراها يا أبي؟ إنها مكلَّلة بالبياض.. إنها تناديني..

كان صوتها يصل إليه..

«أنا أموت يا بني.. أنا أموت.. تعال أريد أن أراك قبل موتي..».

- ماذا جرى لك يا عادل؟ استيقظ من شرودك يا بني..

- هه.. يا إلهي..

- ماذا بك؟ كنت تحادث شخصاً غير منظور..

- أم صالح تموت يا أبي، إنها تناديني..

- ماذا تقول؟ كانت بصحَّة جيِّدة أمس..

- يجب أن أذهب لزيارتها، أنا متأكد أن حالتها سيئة..

- كما تشاء..

- ستراففني يا أبي؟ ما رأيك؟

- رغم أن الطريق متعبة، سأرافقك.. ولكن يجب إعلام والدتك أولاً..

- حسن.. لنسرع إذن..

☆ ☆ ☆

- ٣ -

وفي المستشفى استقبلتهما الممرضة مرحِّبة:

- العجوز أم صالح.. آه.. أنت عادل؟ ردَّدت اسمك كثيراً.. مسكينة..

- ماذا جرى لها؟ أخبريني..

- لفظت أنفاسها قبل قليل.. أخبرنا ولدها الأكبر.. ننتظر حضوره الآن لاستلام الجثة..

- أيمكن أن ألقي نظرة على جثمانها؟

- لماذا؟ إنه أمر مستغرب.. لقد وضعوها في البرّاد.. آسفة..

حاول عرفان إقناعه:

- لا داعي لذلك يا بني.. لن يكون المنظر مريحاً لك..

- يجب أن أراها يا أبي.. إن شيئاً يدفعني إلى ذلك..

- لن يكون المشهد ممتعاً كما قلت لك..

- لا يهم يا أبي..

اتجه نحو الممرضة:

- أرجوك يا آنسة ساعديني، أريد أن ألقي نظرة على الجثمان..

- ولكن لماذا؟ ما السبب؟ العجوز ماتت وشبعت موتاً.. لو انتظرت حتى يأتي أولادها لاستلام الجثمان، يمكن عندها أن تلقي عليها النظرة الأخيرة.. قل لي من فضلك، هل هناك صلة قربى بينك وبينها؟

- نعم.. كان هناك شيء أقوى من القرابة..

غمغم عرفان راجياً:

- ساعديه يا آنسة.. أرجوك..

- أمري لله.. سأفعل ذلك..

استأذنتهما للحظات:

- انتظراني هنا..

وبعد دقائق عادت وهي تشير إليهما أن يتبعاها، وقفت أمام باب ضخم، وأشارت إلى عادل أن يدخل:

- هل أدخل معك يا بني؟

- لا داعي يا أبي. لا أشعر بالخوف.. لا تقلق..

- تفضل من هنا أيها الشاب.. هذا هو جثمانها.. هل أزيح لك الغطاء عن وجهها؟

- سأفعل ذلك بنفسي.. شكراً لك..

- عجِّل أرجوك..

تركته الممرضة ومضت.. وقف حزيناً:

- يا إلهي.. هذا هو وجهك المتعب يا أم صالح، إنه بارد بلا حياة.. تأخرت عليك، جئت وقد فارقت دنياك المعذَّبة..

سمع صوتاً إلى جانبه، كان صوت الرجل المسؤول عن البرّاد:

- يا إلهي.. ماذا يحدث كأن عينيها تبرقان.. شفتها تختلج.. يا إلهي..

رمقها عادل بصمت:

- كأن أم صالح لم تمت بعد، إنها كمن يحاول أن يقول شيئاً ولا يستطيع..

كان الرجل المسؤول عن البراد مذهولاً:

- آه.. يا إلهي، إنها تختلج تحاول النهوض، ترفع يدها.. إنها حيّة..

صرخ:

- المرأة ما تزال حيَّة..

سمع عادل صوتها المكتوم:

- عاد...ل الطاقة.. يا.. بني..

كانت آخر كلماتها، أجهش بالبكاء:

- أم صالح.. أم صالح..

توسَّل إلى الرجل:

- لا تخرج.. ساعدني لنتأكد هل هي حيَّة فعلاً؟

كان الرجل يقف خائفاً على بعد خطوات:

- لأول مرَّة في حياتي، أرى ميتاً يتحرك بعد موته..

- ساعدني لنعيدها إلى وضعها الأصلي.. هه.. أعتقد أن رمقاً من الحياة كان ما يزال في جسدها.. هه.. لا نبض في قلبها، ولا تنفس.. إنها ميّتة الآن..

يرحمك الله يا أم صالح..

- أمر عجيب أيها الفتى.. كأنها جمعت كل طاقتها المتلاشية لتقول لك تلك الجملة.. ماذا قصدت بذلك؟ أتعرف؟

- لا والله.. يا عم لم أفهم شيئاً من كلماتها.. رحمها الله..

- هيّا نخرج أرجوك.. هه.. سأعيد الغطاء إلى ما كان عليه..

فَكَّر عادل:

«كانت تلحّ في طلبي تخاطرياً، لتقول لي تلك الجملة غير المفهومة.. يا إلهي.. ما الذي كنت تريدين إطلاعي عليه يا أم صالح؟ رحمك الله.. كانت حياتك صعبة ومتعبة».

اندفع عرفان نحوه:

- أصحيح ما يقوله هذا الرجل؟ تحركت أم صالح ونطقت ثم عادت إلى موتها؟

- ربما لم تكن ميتة بعد، كانت تختزن ما بقي من طاقتها لتقول لي تلك الجملة.. سبحان الله.. جملة غريبة لم أفهم معناها.. «عادل.. الطاقة.. يا بني» ماذا تعني بالطاقة؟ أمر غريب فعلاً..

- لا عليك يا عادل.. كانت تهذي بالتأكيد.. من يعرف ما يراه المرء وهو يموت.. ما يراه في لحظاته الأخيرة؟ إنه أمر غامض مبهم..

- معك حق يا أبي..

سمعا شجاراً قرب مكتب الممرضة، اقتربا:

- المستشفى لا تتكفل بالدفن يا سيد..

- يمكنكم تدبير الأمر..

- إنها أمك يا رجل، ألا تحترم موتها أيضاً؟

- لا داعي لهذه الكلمات يا آنسة.. أتيت بناء على إلحاحكم.. وحتى لا يرى الناس أننا مقصرون تجاهها..

- هكذا إذن.. ألا تريد أن تتكفل أنت وإخوتك بدفنها؟ إنه أمر يدعو للرثاء فعلاً..

فهم عادل الوضع.. فاتجه برجاء إلى والده:

- أبي، أيمكن أن أطلب منك شيئاً؟

- أعرف ما تريد أن تطلب يا بني.. أنا موافق..

كان الرجل يرمق الممرضة غاضباً:

- لن أضيع وقتي معك، أين رئيسك؟

- لا داعي لأن تضيّع وقتك يا أستاذ صالح.. يمكنك الذهاب، أنت في حلٍّ من أمر جثمان والدتك.. سندفنها نحن..

- هه.. ومن أنت أيها الشاب؟

- قد لا تعرفني.. ولكن هذا لا يهم، كنت أعرف والدتك وأحترمها.. وهذا يكفي لأتكفَّل بدفنها..

فكر صالح وهو يرمق عرفان:

«أعرف وجه هذا الرجل الذي يرافق هذا الشاب الصغير.. إنه أحد أبناء قريتنا، ولكن لا يهم.. لتدفن القرية جثمان أمي.. كانت تحبُّ القرية كثيراً».

اتجه نحو عادل متظاهراً بالحزن:

- أشكرك على شهامتك أيها الشاب.. أنا في موقف صعب.. لقد أنقذتني.. هل أطمئن إذن؟

- نعم.. مع السلامة..

غمغم وهو يبتعد:

- كانت أمّاً طيِّبة رحمها الله..

وكانت الممرضة تردِّد بغضب:

- أتى من أراحك من هذا العبء.. هه.. مع السلامة..

قال عرفان:

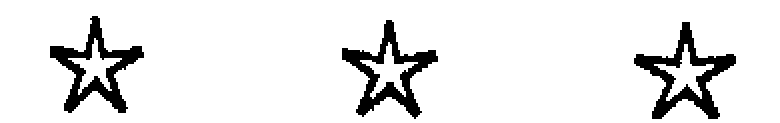
- إنه رجل فظ غليظ القلب..

غمغمت الممرضة:

- بالتأكيد..

- هل نستطيع استعارة سيارة المستشفى لنقل جثمانها يا آنسة؟

- نعم.. سأساعدكم في ذلك.. رحمها الله.. عاشت وحيدة معذَّبة، وماتت وحيدة معذَّبة..



- ٤ -

وهكذا أقام أهل عادل مأتماً لأم صالح ودفنوها بشكل لائق في القرية وشعر عادل بالراحة، كأنه أدَّى عملاً كبيراً.. ولم يستطع تفسير تلك الجملة التي قالتها أم صالح كانت كلمة واحدة غامضة «الطاقة».. فكَّر عادل كثيراً في المعنى الذي تقصده العجوز، واستشار والديه، ولكن دون نتيجة.. ظلَّت الكلمة لغزاً غامضاً..

هل تعني «الطاقة» - الكوّة أو النافذة الصغيرة، أم القدرة؟ سأل نفسه كثيراً هذا السؤال، ثم استقر على أنها كانت تقصد «الطاقة» بمعنى الكوة أو النافذة الصغيرة.. فَكَّر:

- «لماذا لا أبحث في بيت أم صالح القديم في القرية؟ البيت الذي كانت تقيم فيه؟ قد تكون هناك كوة صغيرة؟».

ولكن بيت أم صالح كان مغلقاً وضعه أولادها برسم البيع منذ أن أدخلوها إلى المستشفى.. وبعد نحو أسبوع من وفاة العجوز قال عرفان لعادل:

اسمع يا بني، أراك مشغول البال، دائم الهمّ، أما تزال تفكِّر في لغز المرحومة أم صالح؟

- والله يا أبي، أشعر بثقل يربض فوق صدري، وأنا أتخيَّل تلك المرأة المسكينة تضع كل ما بقي من قوتها في سبيل وصيّة تطلب مني تنفيذها، ثم تموت.. لن يهدأ لي بال قبل أن أفسر مغزى كلمتها وأنفذ ما ترغب..

- كل ما تقوله أشعر به، لذلك ذهبت أمس إلى بيت المرحومة المعروض للبيع واشتريته كان الثمن زهيداً، وقد وضع أولادها سعراً للبيت الصغير يبدو زهيداً بالمقارنة مع غيره، لأنهم أدركوا أن شراء بيت كانت تقيم فيه عجوز مريضة ليس مشجعاً لمن يفكر بشرائه.. أردت أن أفاجئك بشرائه..

- هل فتحت المنزل وتعرفت ما فيه؟

- نويت أن أفتحه بحضورك، إنه ملكك الآن..

دخلت الأم:

- يبدو وجهك مشرقاً يا عادل يا حبيبي، خير؟

- سنقوم أنا وأبي بجولة..

- أصبح أبوك هو رفيقك الدائم.. إنه محظوظ..

ضمّها عادل بحب:

- وأنت يا أجمل أم وأروع أم، حبّك في قلبي دائم ومستمر..

- يا حبيبي.. أنا أغار من والدك، إنه معك دائماً.. وأنا..

قال عرفان:

- أوه.. يا أم عادل.. أنت تسكنين هنا.. في صدري.. أنت معي دائماً أيضاً.. هيا يا عادل.. قم وارتد ثيابك.. سنقوم بالجولة.. هيّا..

سألت:

- أتسمحان لي بمرافقتكما؟

- ليس الآن.. أعدك أن الجولة القادمة ستكون من نصيبك..

- أوه.. تخفيان عني أسراراً؟

قال عادل:

- أيّة أسرار يخفيها الابن عن أمه.. معقول؟

قال عرفان:

- لا تضيّع الوقت... عَجِّل..

- ثوان.. وأرتدي ثيابي..

- والله إنكما تخفيان عني سراً.. أنا متأكدة..

- لا تقلقي، إنه سرّ صغير، سأحكيه لك عندما نعود..

وبعد مدة وصلا إلى المنزل المهجور:

- إنه مكون من غرفة وصالة واسعة، أشياء أم صالح غير موجودة هنا..

- فعلاً يبدو المكان خالياً... لا أرى هنا أي «طاقة»..

- لندخل إلى الداخل.. انظر يا عادل هناك.. ما رأيك بتلك «الطاقة»؟

- إنها مرتفعة قليلاً.. فوق النافذة الكبيرة..

- يمكنك تسلق النافذة والتشبث بالحديد..

تسلَّق عادل النافذة بخفة ووصل إلى الكوّة وفتح بابها بصعوبة، كانت خزانة صغيرة في داخلها صندوق صغير من الخشب ولا شيء سوى هذا الصندوق، أعطاه عادل لوالده:

- انزل الآن بهدوء.. يبدو صندوقاً مقفلاً.. إنه من الخشب القويّ، زخرفته دقيقة وجميلة.. كيف لم ينتبه أولاد أم صالح له..

تفحّصه عادل:

- ربما لا يعرفون بأن الكوة تخفي وراءها خزانة صغيرة..

- الصندوق مقفل، هل أكسر القفل..

- أتعتقد يا أبي أن هذا ما كانت تسعى إليه أم صالح؟ أقصد عند تلفظها وهي تجمع البقيَّة الباقية من قواها بتلك الكلمة «الطاقة»؟

- بالطبع يا بني داخل هذا الصندوق يكمن سرّ اللغز.. هيّا سنحاول فتحه في البيت..



- ٥ -

وصلا إلى المنزل، وضعا الصندوق على الطاولة:

- والدتك في المطبخ الآن.. إنه صندوق قويّ يستعصي على الفتح..

- حاول ألا تكسره..

وبعد محاولات نجح عرفان:

- الحمد لله انفتح دون أن ينكسر.. فيه كتاب ومجموعة أوراق وصرَّة صغيرة.. انظر تبدو الأوراق حديثة..

قرأ عادل بصوت مرتفع:

- ولدي عادل.. اليوم سأذهب إلى المستشفى، وأعلم أنني لن أعود إلى هنا مرّة أخرى.. إنها الرسالة الأخيرة في حياتي أوجهها إليك أيها الشاب الذي لا يحمل سوى المحبَّة للناس..

غمغم عادل:

- كنت أظنها جاهلة لا تفك الخط.. أسلوبها يبدو متمكناً من اللغة والعبارة الإنشائية..

- نعم.. لم تكن امرأة عادية..

تابع القراءة:

- كنت أظنك عندما قابلتني في ذلك الحقل، أول مرَّة، تسخر مني وتشمئز من شكلي المشوَّه.. ولكن الحنان والطيبة اللذين صادفتهما منك بعد ذلك، أقنعاني أنك أهل لأبوح لك بالسرّ الكبير الذي يؤرقني..

فَكَّر عادل:

«سرّ، قد يكون خاصّاً جداً، لا يجب أن يطَّلع عليه أبي».

شعر بحراجة موقفه، فقال عرفان:

- قد يكون سرّاً لك فقط يا عادل.. يجب ألا أطَّلع عليه..

ولكن عادل أكَّد له:

- لا بأس.. يا أبي.. لن أخفي عنك سرّاً مهما كان كبيراً..

- بارك الله فيك..

عاد يقرأ:

- ولدت في عام ١٨٦٩، كان أبي عالماً في الكيمياء دَرس في أوربة حين ولدت، كان له مخبره الخاص في قريتنا التي لم تكن سوى بضعة بيوت حول بيت أبي الواسع، هي بيوت العاملين معه.. توصَّل أبي في تجاربه الكيميائية على الإنسان إلى معرفة سرّ شيخوخة الخلايا، وقد تمكن أن يطبق تجاربه على نفسه وعلى تابعيه، بحيث ظلَّ يحتفظ بنضارته حتى مات.. لم يكن أحد يستطيع أن يخمِّن عُمره.. كان يبدو شاباً فتيّاً..

- إنها حكاية غريبة..

تابع عادل:

- لم يكن أبي يبحث عن سرِّ الخلود، كان يبحث فقط عن سرِّ شيخوخة الخلايا، وقد حاول منذ بداية نشأتي أن يوجهني في هذا الاتجاه.. وبدأت شيئاً فشيئاً أنغمس في تجاربه، حتى أصبحت فيما بعد رفيقته الوحيدة.. في تلك الفترة وكان ذلك عام ١٨٨٨، نشأت علاقة حبّ بيني وبين زوجي الذي كان أحد أتباعه.. وشجَّع أبي تلك العلاقة.. التي أثمرت زواجاً ناجحاً.. وبعد أشهر وضعت طفلي الأول، وكان والده فرحاً وهو يتلقفه بين يديه وأنا أغمغم:

- إنه طفلنا الأول يا حبيبي، سنسميه صالحاً، ما رأيك؟

- نعم، باسم جدِّه، والدك، إنه أستاذي ومعلِّمي..

- سيفرح أبي كثيراً بهذه التسمية..

دخل أبي مهنئاً:

- الحمد لله على سلامتك يا ابنتي..

تلقَّف الولد بسعادة:

- يبدو جميلاً..

قال زوجي:

- سمته صالحاً يا عمِّي..

- على اسمي.. شكراً لكما..

- بالطبع كان أبي فرحاً، ولكن سحابة من الحزن لفت وجهه، سأله زوجي:

- ما بك يا عمّاه؟ تبدو متعباً..

- إنه عقار جديد جرَّبته على نفسي.. إنه يتعبني..

- عقار؟ من أجل ماذا؟ ما هي فائدته؟

- من أجل تنشيط خلايا الدماغ حتى يظلَّ محافظاً على قوته حتى النهاية.. آه.. أشعر بصداع فظيع..

ولم يعش والدي بعد ولادة صالح أكثر من أسبوع، وقد أوصى زوجي بمتابعة أبحاثه التي بدأها حول العقارات المنشطة للدماغ.. واستمر زوجي فعلاً بمتابعة الدراسة، كان يقضي ساعات طويلة في المختبر.. وأشركني في أبحاثه بعد فترة (النفاس).. وهكذا تابعنا سويّة العمل، وأنجبت خلال عشر سنوات ثلاثة ذكور آخرين.. مع طفلتين.. وخفية عن أبي صالح بدأت أطبق العقار الجديد على نفسي وعلى الأولاد، واكتشف أبو صالح الأمر.. وبدلاً من أن يغضب اشترك معي في التجارب..

- النتائج مشجعة، الأولاد أذكياء جدّاً..

- ولكن أتعلم، أشعر بصداع فظيع.. أحياناً؟

- سيزول بعد فترة، انتابني مثل هذا الصداع من قبل، ولكن بعد أن تناولت عقار تنشيط خلايا الجسم وإزالة الوهن فيها، كما كان يفعل والدك زال الصداع، أنا أخلط العقارين معاً، عقار منع شيخوخة الخلايا وعقار تنشيط المخ..

- سأشاركك بذلك..

- سأجهز لك جرعة الآن..

- واكتشفت فيما بعد أن العقار المنشط للدماغ كان له أثر

سلبي على الأولاد إذ جعلهم بلا عاطفة.. يتعاملون بحيادية مع أقرب الناس إليهم.. .. ولم يعش زوجي حتى عام (١٩٠٥) كما كان يتوقَّع.. أما أنا فلكثرة العقارات التي أخذتها، بدأ التشوُّه يغزو جسمي، حيث أصبحت شيئاً فشيئاً كتلة مشوَّهة المعالم.. واكتشفت أنني لو تناولت العقار المنشِّط لخلايا الجسم الأخرى لما حدث لي ما حدث.. وهكذا بدأت أذوي وأعتكف بعيداً عن الناس، وازدادت بيوتات القرية مع الزمن، والناس ينظرون إلي كعجوز مريضة مشوَّهة.. حتى لم أعد أطيق الحياة..

- سبحان الله، لم تكن مريضة إذن..

- كانت عالمة كيمياء متفوقة دون أن نعرف..

وأكمل عادل القراءة:

- وحين لقيتك وأحسست بمدى ما تتمتع به من ذكاء، قررت أن أضع بين يديك بأمانة ملخص أبحاثي، (الكتاب - المخطوط - الموجود إلى جانب هذه الأوراق). أمّا الصرّة ففيها جزء من العقارين اللذين طورتهما أنا وزوجي وأبي.. كل ذلك أمانة بين يديك يا بني..

- فهمت الآن إصرارها على السرّ..

ودخلت سامية عليهما:

- ماذا تفعلان؟ ما هذا الصندوق القديم الأوراق؟

- لا شيء، إنها مخطوطات قديمة نطَّلع عليها..

- أوه.. الغذاء جاهز.. اغسلا أيديكما من هذا الغبار، وارفعا هذه الأشياء القديمة من الطاولة، سأجهِّز السفرة..

☆ ☆ ☆

- ٦ -

خاف عرفان على عادل من أن يتورط بأبحاثه ويصاب بما تعرَّضت له أم صالح، لذلك حاول إخفاء المخطوط والعقارين.. ولكن عادلاً كان يعرف المكان الذي أخفى به والده تلك الأشياء، وكان خلسة يطَّلع على المخطوط ثم يعيده قبل أن ينتبه والده.. ونجح في صفوفه الدراسيَّة بتفوق، ودخل الجامعة، ثم أرسل في بعثة إلى أوربة ليدرس الكيمياء، وهو الفرع الذي اختاره، واصطحب معه والدته، بعد وفاة والده.. واستمر بأبحاثه يتمم أبحاث أم صالح؟..

وفي عام ١٩٨٤م عاد إلى الوطن، واشترى مزرعة قرب العاصمة، استوطنها وتفرَّغ فيها لمتابعة أبحاثه.. ويقال: إنه توصل إلى نتائج هامة جدّاً على صعيد تنشيط خلايا الدماغ..

بدأ يطبق دراساته الحديثة مازجاً إياها بأبحاث أم صالح، لاستنباط عقارات جديدة.. ويقال: إنه كان يبدو أصغر سناً من عمره الحقيقي، ووالدته كانت تبدو في سنّ صغيرة.. وقد حصل

عام ١٩٨٦، انفجار كبير في المزرعة، ولم يعثر فيها على أي أثر لجثث أو بقايا متفحمة..

- ولا يعرف أحد، هل كان عادل ووالدته في المزرعة حين حصل الانفجار أم خارجها؟



الأفعى والقطة المتوحشة

في أوائل أيار من كل عام كان يحتفل سكان قرية (شيريلا) الهندية الواقعة في ولاية (مهارا شترا) بعيد الكوبرا، وهو احتفال يستمر ثلاثة أيام يجتمع خلاله الأهالي ويستعرضون براعتهم في متابعة أفاعي الكوبرا السامة وتلوينها بالألوان الأحمر والأخضر والأصفر، ومن المعلوم أن الأفاعي حيوانات مقدسة في الديانة الهندوسية.. والكوبرا هي أكثر الأفاعي قداسة، فحَوْل عنق الإله شيفا (المدمر في الثالوث الهندوسي) تلتف أفعى من نوع كوبرا مجنحة الرأس.. وكثيراً ما تسبب الأفاعي في الهند مآسي في القرى والمناطق الفقيرة، حيث تلدغ الأطفال والمواشي.. ورغم ذلك فمن المستحيل أن يجرؤ أحد هناك على قتل أفعى.. فقتلها حرام يعاقب عليه الإله.. وإذا قتلت أفعى بطريق الخطأ فإن قرينها - إن كانت أنثى - يسعى نحو القاتل وينتقم منه، وإذا كان ذكراً فإن الأنثى تسعى للانتقام من عائلة القاتل صغيرها وكبيرها.. هكذا

يعتقد البسطاء في الهند. وما دمنا بدأنا الحديث عن الأفاعي سأحكي عن ظواهر غريبة في عالم الحيوان، ونبدأ حديثنا عن الأفاعي.. فرغم كراهيتنا لهذه الزواحف الكريهة.. وخوفنا منها.. قد تحدث حوادث غريبة تكون الأفعى هي البطلة.. أو قد تقوم بدور رئيسي في الحادثة الغريبة..



- ١ -

كان أحد الشعراء الكبار عندنا.. وهو متقدم في السن، يعاني المرض والعجز.. ويسهر بعض الجيران على مساعدته في تصريف شؤونه، وهو كما قلنا شاعر كبير، قدم شعراً متميزاً خلال سنوات إبداعه الطويلة.. يحكي هذا الشاعر أنه في أحد الأيام.. وكان ساهراً وحده متمدداً على فراشه كعادته وسط وهن في الأطراف أشبه بالشلل:

- هه.. ها أنذا مع الليل وسكونه الشاعري.. أشعر برغبة في السهر والتأمل، الساعة تزيد على الواحدة صباحاً.. لقد ذهبت (فاطمة) لتنام.. الوحدة تشعرني بالرغبة في التأمل..

أيقظه من شروده صوت حفيف وخربشة، ورأى أفعى تشرب من فتحة تصريف الماء.

- ما هذا كأن هناك فأرة تهرب منها.. تلك الفأرة اللعينة التي تزعجني أحياناً.. هه الأفعى تتابعها.. إنها تحاصرها، تلتهمها.. إنها تعود من حيث أتت.. فعلت جيداً أيتها الأفعى..

شعر بالراحة، ونام تلك الليلة بعمق، وفي الصباح أيقظته فاطمة:

- صباح الخير يا عم..

- أهلاً بك يا فاطمة..

- لم تزعجك الفأرة أمس؟ اللعينة لا تدخل إلى هنا إلا بعد أن أنصرف..

- لا.. نمت مرتاحاً لأول مرة منذ أسابيع.

- ماذا؟ لعل الفأرة وجدت مكاناً آخر..

- لا أعتقد أنها ستأتي بعد اليوم..

- أرجو ذلك يا عماه.. قل لي هل ستكتب شيئاً اليوم؟

- لا.. قرأت شيئاً من شعر (أبي ماضي) لم أشعر برغبة في الكتابة..

- سأعد لك الإفطار.. وأرتب الغرفة.. وسأساعدك في غسل وجهك..

- بارك الله فيك يا ابنتي..

☆ ☆ ☆

في الليلة نفسها أيضاً، دخلت ضفدعة من الفتحة، رآها تدخل، وهو عاجز عن ردها..

- ستزعجني بصوتها الكريه أيضاً طوال الليل، ها هي ضفدعة أخرى.. سأحاول أن أتلهى بقراءة هذا الكتاب.. يبدو أن مصرف المياه المتجمعة أصبح مغرياً للضفادع بالقدوم. ما هذا؟ آهٍ، صديقتنا الأفعى المرقطة جاءت أيضاً.. إنها تقترب من الضفادع.. بحرفة صياد ماكر تلتهمها واحدة واحدة.. سبحان الله.. إنها تتمطى قرب المياه.. وتنسرب إلى الخارج.. لماذا لا أشعر بخوف منها؟ أنا لا أخاف شيئاً، ولكن الأفعى كريهة.. هذه الأفعى بالذات تبدو من نوع مختلف.. سبحان الله.. الآن سأكتب بضعة أبيات من الشعر.

☆ ☆ ☆

وبدأت الأفعى المرقطة تزور الشاعر الكبير يومياً في وقت متأخر تنظف له الغرفة من الحشرات والفئران والضفادع، وما يدب على الأرض ويجد في فتحة مجرى الماء منفذاً للدخول إلى الغرفة العتيقة.. بدأ يعتادها، كانت تأتي في الليل فقط، ولم يرها تدخل خلال النهار.. وقد سأل نفسه عن السر، وبرر ذلك أنه من الممكن ألا تجد الهدوء والجوّ المناسب للدخول.. والجيران

والمعارف يكادون ينقطعون عن زيارة الشاعر خلال وقت النهار.. وهكذا استمرت زيارة الأفعى لمقر الشاعر.. في أحد الأيام جاءت الأفعى في الليل كعادتها، ثم تكومت على مدخل فتحة الماء وقبعت دون حركة.. شعر الشاعر - وقد اعتادها - بالنعاس، وحلم بأنه يسير في واد مليء بالأفاعي.. التي كانت تتكاثر في طريقه.. دون أن ينزعج ويخاف.. ولكن نمساً ضخماً هجم على بعضها وقتله.. فاستيقظ الشاعر مرعوباً..

- كان كابوساً مرعباً.. سبحان الله، لم أخف من الأفاعي، وإنما خفت من النمس الكريه.. لقد طلع الفجر.. أين صديقتنا الأفعى؟ يبدو أنها ذهبت..

شعر بالعطش فزحف ليشرب من جرة الماء.. وبعد أن انتهى رأى جرذاً يدخل من الفتحة..

- أعوذ بالله إنه يتجه صوب الطعام.. سأستخدم هذه العصا الطويلة..

وبصعوبة تمكن من إخراجه، وزحف إلى مكانه يقرأ في كتاب لذت له قراءته.. صحا بعد مدة على صوت فاطمة وهي تفتح الباب:

- صباح الخير.. استيقظت باكراً؟

- أهلاً بك يا ابنتي.. دخل جرذ إلى الغرفة فطردته.. إنه جرذ قبيح..

- قلت لك أكثر من مرة، اطلب من ضيوفك، ويبدون ذوي سلطة في المدينة.. اطلب منهم أن يساعدوك في تركيب مجرى للمياه.. وبالوعة.. أنا خائفة عليك.. بدأت الحرارة الآن.. قد تتسلل من هذا الثقب حشرة أو أفعى.. وأنت بلا حول ولا قوة..

- لا يهم.. لن أطلب منهم شيئاً.. ألا يرون حالتي؟ اسمعي يا فاطمة، لو أردت مدح الملوك والسلاطين لكنت الآن أعيش في قصر وحولي الأتباع.. أنا أرفض ذلك، أريد أن أعيش كما أريد، دون أن يقيدني أحد بكرمٍ، هدفُهُ إسكاتي عن إطلاق صوت الحق.. أنا في عقدي التاسع أدب ضعيفاً نحو عقدي العاشر.. قد أصل إليه أو قد أموت.. لا يهم..

- هذا ما يجعل الناس يتعلقون بك.. هه.. عاد الجرذ.. سأطارد هذا اللعين.. يبدو قذراً.

- لقد دخل تحت الفراش.. هه.. اختفى بين الكتب هناك..

- إنه لا يخرج.. اللعين.. سأزيح الكتب..

- سيجد الورق دسماً.. الجرذان اللعينة حيوانات طماعة تأكل كل شيء حتى الخشب والأغطية والورق.. اسمعي يا فاطمة..

- نعم يا عماه..

- لا تخافي.. اتركيني وحدي الآن، أتت صديقتي وستتكفل بالقضاء على الجرذ..

صرخت فاطمة مرعوبة:

- يا إلهي.. أفعى.. إنها مخيفة.. ضخمة..

- لا تخافي، اخرجي من الدار الآن.. واتركيها تستمتع بالقضاء على الجرذ..

- ماذا تقول يا عماه؟ إنها خطرة عليك.

- منذ أيام وهي تزورني، تنظف الغرفة من الحشرات والفئران، وأمس نظفت مجرى المياه من الضفادع وذهبت، إنها صديقة لي، لا تقلقي.. أرجوك يا فاطمة، اخرجي..

خرجت مترددة:

- طيب..

بدأ الشاعر يحكي مع الأفعى بصوت حنون:

- يا صديقتي، لاحقي ذلك النذل، إنه بين الكتب.. نعم.. هيا.. كانت تتجه صوب الكتب.. رأى الجرذ يخرج يحاول

الزوغان.. وهي تنقض عليه.. تحاصره في الركن، يحاول القفز، ولكنها تمكنت من الإطباق عليه بفمها.. أخذت تسحبه وتتجه صوب الماء لتخرج.

فكَّر الرجل:

«كأنها لا تريدني أن أراها تبتلعه.. يا إلهي إنها تخرج بهدوء.. سبحان الله..»..

صرخ ينادي فاطمة:

- يا فاطمة.. أين أنت؟

ودخل شاب بيده بندقية:

- آه.. إبراهيم.. أين فاطمة؟ ماذا أرى؟ تحمل بندقية؟

- سوف أقتل هذه الأفعى اللعينة..

- ماذا تقول يا بني؟ إنها صديقتي.. كيف تقتلها؟

- ما هذا الكلام يا أستاذ؟ ألم تسمع حكاية القروي الذي أشفق على ثعبان متجمد من البرد فوضعه في (عبِّه) وحين شعر الثعبان بالدفء لدغ القروي فقتله؟

- هذا ليس عاماً.. هذه الأفعى تأتي إلي منذ أيام.. تنظف

الغرفة من الحشرات والحيوانات الصغيرة ثم تخرج، دون أن تقترب مني، إلا لالتهام فأرة أو ضفدعة أو حشرة مزعجة..

- «أنا خائف عليك يا أستاذ..»...

سمع الشاعر أصواتاً صاخبة، ودخلت أم إبراهيم لاهثة:

- هه.. هل قتلتها؟ ماذا يا إبراهيم؟

- أقتل ماذا؟ لقد ذهبت، ثم إن الأستاذ يرفض أن أقتلها.

ودخلت فاطمة مع بعض الجيران أيضاً.. أكملت أم إبراهيم كلامها مستغربة:

- ماذا تقول؟ كيف يا أستاذ؟ إنها خطيرة.

- يا أم إبراهيم.. تلك الأفعى تتردد علي منذ أيام.. ولا خوف منها..

- إنه يقول: إنها تنظف الغرفة من الحشرات والحيوانات المزعجة.

- بعد ذهابك يا فاطمة.. دخلت إلى ذلك الركن، وأطبقت بفمها على الجرذ، وسحبته وخرجت، ما رأيك؟

- نحن خائفون عليك.. قد تؤذيك..

- لا تخافوا من هذه الناحية.. إنها وديعة وهادئة، تقوم بعملها ثم تخرج.

- رأيتها.. إنها كريهة قبيحة..

- اعتدنا كراهية هذه الحيوانات رغم أن بعض المجتمعات تقدسها وتقدم لها الأضاحي كالهند مثلاً..

☆ ☆ ☆

وظلت الأفعى تتردد يومياً على الشاعر فترة زادت عن أربعة الأشهر، ورغم خوف الجيران على الشاعر، ورؤيتهم للأفعى في غدوها ورواحها.. فلقد احترموا مشاعره ولم يؤذوها، وما إن أقبل الخريف وأقبلت معه البرودة، حتى أخذت الأفعى تقضي الليل بطوله متكومة في ركن قرب الماء في غرفة الشاعر.. ولكن هذا الأمر أخذ يزعج زواره.. مما جعل الشاعر يفكر في أمر الخلاص منها.. ولكن حدث ذات ليلة:

- إنها منطوية على نفسها في الركن، تستمتع بدفء الغرفة، أخشى إن جاء الشتاء أن تظل معي.. ولكن لماذا أخاف منها، لم أر منها ضرراً حتى الآن.. ما هذا؟ إنها تتحفز وتطلق فحيحاً.. (كانت الأفعى متحفزة فعلاً).. ماذا أرى؟ يا إلهي، شيء يتحرك

تحت الضوء في اتجاه رجلي، إنها حشرة ضخمة أشبه بعنكبوت ضخم.. يا إلهي.. إنها عقرب.. الأفعى تقترب منها.. تتحفز، إنها تطبق عليها.. ذنب العقرب المرفوع ينهرس في فمها.. يا إلهي..

أسند رأسه مذهولاً:

- لقد حمتني من أذى العقرب.. لم أر في حياتي عقرباً بضخامة هذا العقرب، يا إلهي.. إنها تنطوي من جديد، وهي تتمطى، وتتجه صوب ركنها.. تلتف حول نفسها.. سأنام باطمئنان إنها تحرسني جيداً.. سبحان الله..

وفي اليوم التالي جاءته أم إبراهيم منذ الصباح:

- فاطمة سافرت إلى المدينة، لزيارة أختها.. ستعود غداً.. سأتكفل اليوم بالإشراف على أشيائك..

- أهلاً بك يا أم إبراهيم..

- ولكن هذه اللعينة، ما تزال هناك في الركن؟

- خائفة منها.. لا بأس.. هه.. اذهبي.. اذهبي من هنا الآن..

- تريدني أن أذهب؟!..

- أخاطب الأفعى.. إنها تتجه صوب فتحة مجرى الماء.. إنها تخرج.. يمكنك القيام بعملك يا أم إبراهيم.

- سبحان الله، لقد استمعت لك، كأنها تفهم كلماتك!..

- أمس أنقذتني من عقرب كاد يلدغني.. انقضت عليه والتهمته، وهو يتجه صوب رجلي هنا.

- سبحان الله، غريب أن تستمر في الانزواء في هذه الغرفة.. كأنها تفهم مهمتها في حماية الغرفة من الحشرات والحيوانات الضارة..

- لذلك منعت إبراهيم ورفاقه من قتلها.. لقد حمتني طوال الصيف.. وحتى مع بدء الخريف.. لم تبخل علي بالحماية..

- ولكن مدة بقائها هنا خلال اليوم زادت مع قدوم البرد.

- كنت أفكر في الشتاء القادم.

- تعتقد أنها ستظل هنا، ولن تخرج طوال فصل البرد؟..

- لا أعرف.. يمكن..

- وإن كنت متضايقاً منها.. طلقة واحدة من بندقية إبراهيم تريحك منها.. ما رأيك؟

- لا.. لا.. لم أفكر بهذا الحل.

- إذن.. اطلب منها الذهاب وعدم العودة.. أي قل لها اذهبي ولا تعودي يبدو أنها تفهم عليك..

- لم أتضايق منها بعد..

- لأنك لحظت كيف خلصتك من العقرب أمس..

غمغم هازّاً رأسه:

- ممكن..

وفعلاً طلب الشاعر منها الذهاب وألا تعود.. ولم يرها منذ ذلك الحين.. كانت أفعى غريبة فعلاً.. وقد سد إبراهيم مجرى الماء ولم يترك سوى ثقب صغير.. وذلك مع مجيء فصل الشتاء.. ولم ير الشاعر الكبير تلك الأفعى ثانية.. منذ أن طلب منها الذهاب وعدم العودة.. الشاعر في غرفته المنزوية.. إنه شاعر كبير ظلَّ رغم مرضه ما زال يتحفنا بشعره الملتزم بقضايا الناس وهمومهم ومتاعبهم.. وقصته مع الأفعى معروفة رواها جيرانه ومعارفه.



- ٢ -

وما دمنا نتحدث عن أحداث غريبة لها علاقة بالحيوانات الغريبة سنروي قصة أخرى.. حدثت قبل سنوات عندنا.. كان أبو أحمد يعمل سائقاً لشاحنة.. ينقل السلع من مدينة إلى أخرى.. وكان يسكن في بيت صغير في قرية قريبة من العاصمة.. كانت أسرته صغيرة، مكونة من زوجته وابنته الصغيرة.. وقد حملت بها أم أحمد بعد عشر سنوات من زواجهما.. ولم يكن عندها صبي يحمل اسم أحمد. كانت أم أحمد في شهرها التاسع أيضاً.. وكان أبو أحمد يتوقع أن يكون المولود الجديد صبياً لأنه أكبر إخوته.. كانت أم أحمد من مدينة تقع في شمال البلاد، وحين بدأ شهرها التاسع سافرت وابنتها من أجل الولادة بسلام بين أهلها، وبقي أبو أحمد وحده في البيت يسافر عدة أيام، ثم يعود إلى البيت ليقضي بعض الوقت قبل أن يسافر من جديد.. وكان في البيت قطة سيامية جميلة تعلقت بها العائلة كثيراً.. وفي أحد الأيام وبعد عودته من عمله في ضواحي العاصمة.. وضع صحناً مليئاً

بالحليب والخبز قرب القطة التي كانت تتمسح به.. وجلس يفكر، شعر فجأة بالقلق فصمم على التحدث مع أم أحمد بالهاتف والاطمئنان عنها، وخاصة أنه سيسافر في اليوم التالي في إحدى سفراته الطويلة، استقل الشاحنة إلى مركز بريد الضاحية، وطلب المخابرة، وبعد فترة من الانتظار أومأ إليه موظف الهاتف يشير إليه إلى الحجرة حيث رنَّ جهاز هاتفها:

وأتاه صوت أم أحمد:

- أبو أحمد .. كيف حالك؟

- الحمد لله.. وأنت؟ كيف حال سامية؟ آه.. نعم.

سألته:

- متى ستأتي إلينا؟

- بعد أسبوع.. سأسافر غداً إلى أقصى الشمال الشرقي.. عندي حمولة سأنقلها إلى هناك وأعود بحمولة أخرى..

- هل تطعم القطة جيداً؟

- نعم.. لا تقلقي.. سامية قريبة منك الآن؟

- إنها في بيت خالها.

- أتريدين شيئاً؟

- لا.. سلامتك.. حاول أن تأتي إلينا ولا تقلق أنا بخير، وكذلك سامية.

عاد مطمئناً بعض الشيء، وفي تلك الليلة نام مبكراً، وصحا على جرس المنبه، نهض مسرعاً لحظ القطة النائمة، وضع قربها الحليب بعد أن قطع فيه الخبز، ولم تصح على حركته كعادتها، وحين أصبح جاهزاً للرحيل أغلق الأبواب والنوافذ جيداً، وانطلق في شاحنته على الطريق.

☆ ☆ ☆

وفي اليوم التالي بدأت تسمع في ذلك البيت المنزوي أصوات أشبه بتأوهات حزينة، ومخالب تحاول تقطيع الخشب.. وحركة غاضبة لحيوان بدأ يفقد عقله بالتدريج.. أما أبو أحمد فكان يحاول الاتصال بزوجته.. وأخيراً التقط الخط:

- أبو أحمد.. من أين تتحدث؟

- من الحسكة.. كيف حالكم.. كيف حال أم أحمد؟

- مبارك.. ولدت في الليل.. إنه صبي.. الحمد لله على سلامتها.. أتاك أحمد أخيراً.

- ماذا؟ ولدت أم أحمد.. ولدت أحمد.. شكراً لك يا رب.. سأحاول أن أمر عليكم للاطمئنان عنها.

- هي بخير لا تقلق.. أنهِ عملك وتعال إلينا.. لا تجازف بالحمولة وتحضر إلى هنا..

- طيب.. طيب..

ومرَّ الوقت والأصوات تزداد غضباً في ذلك البيت المنزوي، وانتهى الأسبوع، وعاد أبو أحمد بعد أن نقل حمولاته إلى عدة مدن، وأحضر حمولة إلى العاصمة، واتجه إلى منزله في ساعة متأخرة من الليل:

- الحمد لله يمكنني النوم، الآن وفي الصباح سأبكر بالسفر لرؤية أم أحمد، والاطمئنان عنها..

أطفأ محرك الشاحنة، وهبط منها، وهو يحرك جسمه المتيبس، ثم أقفل بابها واتجه نحو باب الحديقة الخارجي يفتحه بالمفتاح:

- أين القطة لا أراها، كانت تهرع لاستقبالي.. يبدو أنها بعيدة عن البيت تأكل مما تصيده في البرية..

ولج في الممر المفضي إلى البيت، وضع المفتاح في الباب.. خيل إليه أن شيئاً سيحدث له فأحسَّ بالانقباض، أدار المفتاح:

- يا إلهي.. آه.. آه.. آه.. كانت صرخاته المرعبة تتردد في ظلمات الليل.

☆ ☆ ☆

- يبدو أن باب بيت أبي أحمد مفتوح.. ما رأيك أن نذهب ونسلم عليه؟..

- لا بأس.. تفضل.. البوابة مفتوحة.. يا إلهي ما هذا؟ أبو أحمد ممدد أمام الباب.. هيا لنقلبه..

- أعوذ بالله، ما هذا المنظر.. يبدو وجهه مشوهاً ورقبته مقطعة..

- سنخابر الشرطة.. إنها جريمة.. هيا..

كانا من جيرانه، رأيا الشاحنة أمام البيت، فرغبا في الدخول لتحية الجار الطيب..

وحضرت الشرطة أخيراً:

- لا أحد يقترب.. لا تلمسوا شيئاً..

قال أحد الرجلين:

- مسكين يبدو أن قاتله متوحش..

وقال الآخر:

– معك حق.. ولكن من يفكر في إيذائه؟ غريب؟ كان أبو أحمد رجلاً محبوباً كريماً.. يعمل بجد..

وقال جار ثالث:

– ستخابر الشرطة أهله.. أعتقد أن التحقيق سيبدأ فوراً..

أما رجال الشرطة فصرخوا بالمجتمعين:

– هيا ابتعدوا.. سنأخذه إلى المستشفى يجب تشريح الجثة..

☆ ☆ ☆

– إنه مشوه بطريقة غريبة.. كأن رقبته ممزقة بسكاكين حادة..

– أرجوك يا دكتور، اكتب تقريرك سنرفعه إلى المحقق.. أتعتقد أن هناك جريمة؟

– لا شك أن الرجل مقتول بطريقة وحشية.. ولكن طريقة القتل.. وأدواتها.. لم نتحقق منها جيداً..

– ماذا تعني يا دكتور؟

– لم نستطع بعد الجزم بنوعية الأداة المستخدمة في القتل..

- مسكين إنه مشوه بطريقة فظيعة..

وسأل المحقق الجارين:

- كنتما أول من رآه.. قل لي أنت: لماذا جئتما لزيارته؟

- إنه صديقنا.. كان مسافراً جئنا للاطمئنان عنه، وتهنئته بالمولود الجديد.

- ماذا تعني؟

- ولدت امرأته قبل أيام صبياً كان ينتظر قدومه بفارغ الصبر.

- يعني عنده العديد من البنات؟

- لديه بنت واحدة، بعد زواج عشر سنوات، وبعد أن راجعا العديد من الأطباء.. حملت أخيراً وولدت فتاة، ثم حملت من جديد وولدت له الصبي..

- هل كان حسن السيرة والسلوك؟

- كلنا نحبه، كان شهماً غيوراً على جيرانه.. لا يتأخر عن تلبية الواجب..

- هل تعتقد أن لديه أعداء؟

- لا يا سيدي.. حسب علمي لا أحد يكره أبا أحمد..

- إذن كيف قتل؟

- كيف لنا أن نعرف يا سيدي؟ ربما كان السبب سرقة واعتداء؟

- اعتداء بقصد السرقة هه.. ولكنه لم يكن ميسوراً كما أعرف..

- نعم.. هذا صحيح.. إذن لماذا القتل؟ إنه أمر محير..

- بإمكانكما التوقيع على أقوالكما والذهاب.

- شكراً لك يا سيدي المحقق..

حضر سامي من حلب للمشاركة بالتحقيق دون أن يخبر أخته، قال للمحقق راجياً:

- أرجوك يا سيدي.. لا داعي لها أن تعرف الخبر، قد يؤثر ذلك عليها، لقد ولدت حديثاً.

- سنؤجل التحقيق معها الآن.. ولكن قل لي يا سامي، أكان لأبي أحمد أعداء؟ اصدقني القول..

- مستحيل يا سيدي.. كان أبو أحمد رجلاً طيباً محبوباً..

- إذن كيف قتل؟ وما هو السبب؟ إذا لم يكن له أعداء، كيف قتل إذن؟

- والله لا أعرف يا سيدي..

- يمكنك الانصراف يا سامي.. وقع هنا.

- ومتى نستلم الجثة يا سيدي؟

- بعد أن يقدم الطبيب الشرعي تقريره.. لن يتأخر، لا تقلق..

☆ ☆ ☆

قرأ المحقق ما كتبه الطبيب الشرعي بإمعان وتبادل معه الحديث:

- مخالب حيوان هي التي مزقت وجه أبي أحمد.. ومزقت رقبته أيضاً؟

- حيوان شرس، هاجمه وشوهه ومزق رقبته بل وأكل قسماً منها؟!..

- أي حيوان يصل إلى وجهه ورقبته بالتحديد؟ هذا غريب فعلاً..

- لا أدري أي نوع من الحيوانات، ولكنه حيوان لاحم، له مخالب وأنياب حادة..

- أمر غريب..

وفي بيت الضحية كان الوضع غريباً..

- انظر يا سيدي، الفوضى تضرب أطنابها هنا.. الأشياء مقلوبة.. الأغطية، الوسائد ممزقة.. حتى الصحون والكؤوس تتوزع شظاياها في كل مكان.. لا شيء في مكانه في هذا البيت..

- كان الجاني يبحث عن شيء لم يعثر عليه، ثم هاج به الغضب فخرب ترتيب البيت، وانهال يخرب الأثاث والأواني والمؤونة..

- انظر يا سيدي.. المخالب واضحة.. إنها فعل حيوان وليس فعلاً بشرياً..

- صحيح.. هكذا يبدو.. ولكن أي حيوان يفعل هذه الأفعال الغريبة، يخرب كل ما في البيت ثم يقتل صاحب البيت؟!..

- لا أعرف الجواب يا سيدي..

وظلت القضية تحير أجهزة الأمن، ولكن شيئاً حدث بعد أيام أعطى الضوء لبداية حل القضية، فقد هاجم حيوان متوحش بعض المارة في الليل قريباً من بيت أبي أحمد.. سمعا زمجرة في البداية:

- ما هذا؟ كأنه صوت وحش..

أشعل الرجل الكبريت، فانقض عليه وحش صغير الحجم، قاومه بمساعدة رفيقه، وهو يشعر بمخالبه القوية تمزق رقبته:

- آه.. يا إلهي، أكاد أختنق..

وتمكن رفيقه من ضرب الحيوان الذي هرب:

- إنه بحجم القط، ولكنه كثير الوحشية..

كان الجريح يتأوه وهو يشعر بآلام لا تطاق، وكان الدم يجري من رقبته بغزارة، أسنده رفيقه:

- هيا سأرافقك إلى المستوصف..

وحين عرض الرجلان ما جرى للمحقق:

- ماذا تقول؟ حيوان بحجم القط، كثير الوحشية..

- نعم يا سيدي.. انظر إلى رقبته..

فكَّر المحقق:

- قد يكون الحيوان نفسه الذي هاجم أبا أحمد..

رأى آثار المخالب، وهتف للطبيب يستدعيه ليفحص تلك الآثار..

☆ ☆ ☆

وبالطبع أثبت التحقيق أن الحيوان المعتدي بحجم القط.. وبعد دراسة وتمحيص توصل المحقق إلى النتيجة التالية:

«من سؤالي الأقارب وأصدقاء أبي أحمد، ومن معاينة المكان ومعاينة المجني عليه، تبين لي أن الفاعل هو من فصيلة القطط، ويؤكد سامي أخو زوجة القتيل، أن في بيت أخته كانت تعيش قطة سيامية جميلة.. كانت سامية الصغيرة متعلقة بها.. ويبدو أن أبا أحمد قد سافر وترك القطة في البيت، دون أن يفتح لها منفذاً تخرج منه.. ومرَّ عليها الوقت.. واشتدَّ عليها الجوع والعطش، ولم تستطع أن تعثر على منفذ، وعلى أي أثر لطعام أو ماء.. ومرَّت الأيام عليها، وهي تزداد جوعاً وعطشاً وغضباً.. وحين فتح أبو أحمد الباب، انقضت عليه بوحشية تقتله، وقد اعتبرته المسؤول عن تجويعها وحبسها، تحولت إلى حيوان شرس مخيف.. وهي تمزق وجه صاحبها ورقبته وتأكل من لحمه.. ولكنها ظلت متوحشة.. كأن ذلك السجن والجوع قد حوَّلاها إلى حيوان آخر من فصيلة أخرى..

مسكين أبو أحمد.. لم يخطر في باله يوماً أنه سيكون ضحية قطة محبوسة، شرسة جائعة، وقد وضعت الشرطة كمائن متتالية، حتى استطاعت قتل القطة المتوحشة التي هاجمت بعض أهالي القرى أيضاً..

☆ ☆ ☆

تلك الأيام العصيبة

[في إحدى القرى البعيدة عن المدينة، حيث ترتفع الجبال، وتكثر الأشجار والأحراج في السفوح والوديان، ويشتد عصف الرياح والثلوج في الشتاءات الباردة، جرت أحداث هذه القصة.. حيث يتعايش الإنسان مع بيئته الصعبة ويتكَيَّف معها..].

- ١ -

في عام (١٩٥٤) وهو العام الذي بدأت فيه أحداث قصتنا، كان الشتاء قارساً في تلك القرية.. وفي أوائل شباط من ذلك العام..

- لا تذهبي يا ابنتي.. الطقس شديد البرودة الآن.. والمطر يهطل بغزارة..

- يجب أن أملأ الجرة، لم يبق سوى القليل من الماء..

- النبع ليس قريباً.. انتظري حتى يحضر أخوك سالم، سأرسله ليملأ الجرة.. سالم شاب قوي ولا خوف عليه..

- ليست المرة الأولى التي أخرج فيها للنبع وحيدة..

- ستغرب الشمس قبل أن تصلي إلى النبع..

- لا يهم يا أمي، لن أضيع الوقت.. سأسرع في العودة لا تقلقي..

أوقفتها العجوز:

- انتظري يا فاطمة.. ضعي هذا الثوب الكتيم فوقك، المطر غزير الهطول..

وهكذا ذهبت فاطمة إلى النبع، والمطر ينسكب كأفواه القرب..

وفي وسط الطريق رأت شيئاً متجمعاً كأنه كتلة من المطاط.. «يا إلهي، معقول؟ إنها أفعى متجمدة، كيف خرجت من جحرها.. يبدو أن المياه جرفتها، وهي في مرحلة سباتها، إنها ميتة كما يبدو.. سأدفعها إلى هذه الثغرة المظلَّلة حتى لا يخاف منها أحد..

ودار حوار بين العجوز وابنة فاطمة الكبيرة:

- أين ذهبت أمي يا جدتي..؟

- ذهبت تملأ الجرة من النبع.. تصوري في هذه الساعة، المطر ينسكب كأفواه القرب..

- كان يجب أن تمنعيها..

- أمك عنيدة يا زينب، تعرفينها جيداً..

- لو كان خالي سالم هنا لقام بالمهمة، لماذا تأخر حتى الآن؟

- والله لا أدري..

- إنه في بيت شيخ الجامع.. يسترق النظر.. حليمة أخذت لبه..

- اصمتي يا خبيثة.. خالك شاب مؤدب..

- نعم يا جدتي.. ولكنه عاشق.. اخطبيها له، سيرتاح باله..

- «مالك ولهذه الأمور، ما تزالين صغيرة..»

وفتح الباب الخارجي..

- يبدو أن أمك قد عادت..

- إنه خالي سالم..

قال سالم:

- كيف حالك يا أمي؟

- الحمد لله، لو بكرت قليلاً، كنت ذهبت إلى النبع بدلاً من أختك..

- فاطمة ذهبت إلى النبع؟ لماذا وفي هذا الوقت؟

- لم يبق سوى القليل من الماء.. تعلم أختك وعنادها..

- لا بأس.. ستعود بعد قليل..

- أنا خائفة أن تتأخر وتعود في الظلام.. كادت الشمس تغيب..

- هل أذهب خلفها؟

- لا بأس الآن.. سننتظر بعض الوقت..

اقتربت منه زينب:

- خالي..

- ماذا؟ لماذا تهمسين؟

- اخفض صوتك.. لا أريد أن تسمع جدتي..

- ماذا؟

- جدتي موافقة على أن تطلب يد حليمة عروساً لك..

- ماذا؟ ماذا تقولين؟ متى قالت ذلك؟

- تحادثنا في ذلك قبل قليل.. هل أكلمها أمامك الآن؟

- لا.. لا.. ليس الآن..

قالت العجوز:

- خير؟ ماذا تقول لك هذه الخبيثة؟

- لا شيء يا أمي.. لا شيء..

☆ ☆ ☆

- ٢ -

كانت فاطمة قد ملأت الجرة واتجهت تصعد السفح في طريقها إلى القرية:

- المياه تجري من الأعلى ستعرقل صعودي صوب القرية.. يبدو أن أحداً يقترب.. الطريق ضيق هنا..

انتصب أمامها كالشبح:

- من أنت؟ آه..

- يا إلهي، إنه (جميل) الفارّ من العدالة.. إنه يتمنطق ببندقيته.. إنه كما وصفوه بالضبط..

- أنت من القرية؟ هه.. ألا تخافين أن تملئي جرتك في الليل؟!..

- لا ماء عندنا، وأولادي صغار..

- لماذا لا يملأ زوجك الجرة، بدلاً منك، السماء تمطر بغزارة..

- زوجي مسافر.. إنه يعمل في بلاد الغربة..

- هه.. وحيدة إذن..

أمسك يدها انتفضت:

- اترك يدي..

- أقيم في منطقة قريبة من هنا.. إنه مكان دافئ.. تعالي..

أبعدته عنها:

- ابتعد عن طريقي..

- لا تغضبي أيتها الجميلة.. تعالي..

- لا يلبث أخي أن يصل إلى هنا.. إنه قوي.. ولا يخافك..

- لا يخافني؟ ومن لا يخافني في هذه الناحية؟ هه.. لا تضيعي الوقت، تعالي..

- ابتعد عن طريقي..

ضحك:

- من الذي يسمع صراخك وسط هذه الرياح والأمطار.. هه؟ على كل سأتركك الآن.. ليس لأنك تقاوميني.. بل لأن لديَّ عملاً هامّاً بعد قليل.. ولكن أؤكد لك أننا سنتقابل..

تنهدت وهي ترفع الجرة:

- الحمد لله.. لم أفقد صوابي من الخوف، وظلت الجرة بيدي..

اتجهت نحو البيت وهي مهدودة من الخوف..

☆ ☆ ☆

- ٣ -

- تأخرت فاطمة.. سأذهب خلفها الآن..

- خذ مصباح الجيب وابحث عنها..

تمتم وهو يخرج مسرعاً:

- لا تقلقي.. المنطقة في هذا الوقت خالية من الوحوش..

- كيف؟ كثير من الذئاب والضباع تعيش في المنطقة، لا يهمها مطر أو ثلج..

بكت زينب.. قالت العجوز:

- توكلي على الله يا ابنتي ستكون أمك بخير.. سامحها الله، لماذا أصرت على الذهاب في هذا الوقت؟

☆ ☆ ☆

بالطبع عثر سالم في الطريق على أخته، وكانت في جوار القرية.. ولم تحكِ فاطمة له شيئاً عما جرى لها، وعن اعتراض (جميل) الهارب من العدالة طريقها..

وعاد معها إلى البيت، وسط صمتها وذهولها.. حاول أكثر من مرة أن يعرف ما جرى لها، ولكنها كانت تتنهد ولا ترد.. وقررت فيما بينها وبين نفسها أن تصمت، وتوجد لنفسها حكاية بسيطة عن خوفها من الظلام والمطر وعصف الرياح.. قالت لأمها بعد أن جلست وارتاحت قليلاً:

- قلت لك يا أمي: إن الأمر بسيط.. اشتد الظلام وعصفت الريح.. خيل لي أنني أسمع أصواتاً وأرى أشباحاً.. كنت خائفة فعلاً حتى وصل سالم، كل شيء عندها انتهى، لا تقلقي.

- في المرة الثانية لن أتركك تذهبين هكذا، آه يا ابنتي لم يكن هناك سبب ملح لذهابك في تلك الساعة إلى النبع.

- خفت أن يتأخر سالم.

- ولكنه لم يتأخر.

قالت زينب:

- على كل حال وصلت أمي بالسلامة، لا داعي أن تتكلمي بالموضوع يا جدتي أكثر من ذلك.. أمامنا الآن موضوع مهم.. خالي سالم عاشق، يجب أن نحل له مشكلته..

قال سالم:

- اصمتي أيتها الخبيثة لا تفضحينا.

همست إليه: اتركني أحل لك المشكلة، خجلك لن يساعدك على حلها.

قالت العجوز:

- عدت لكثرة الكلام أيتها الصغيرة..

همس سالم معاتباً:

- أسمعت هه.. إنها غير راضية.

- لا يا جدتي.. هذا ليس عدلاً.. ابنك فعلاً عاشق.. ويجب أن تزوجيه، ليس صغيراً..

همست الأم:

- ومن يحب خالك يا زينب؟ هل هي فتاة من القرية؟

- لا داعي أن تهمسي يا أمي.. سالم يحب حليمة ابنة الشيخ.. وأعتقد أنها غارقة في حبه حتى أذنيها..

انبرت العجوز:

- اسمعي أيتها الفتاة، ما تزالين صغيرة على مثل هذه الأمور.. مالك والكبار؟

- ألا تسمعين يا أمي ما تقوله هذه العجوز؟

خففت فاطمة عنها:

- إنها تمازحك.. لا تقولي لها مثل هذا الكلام.. إنها جدتك.. ولها الفضل في تربيتك أيضاً..

- آسف يا جدتي.. ولكن أؤكد لك أنني لست صغيرة.. هه لن أجلس معكم الآن، يبدو أن خالي العزيز لا يملك الجرأة على مفاتحة السيدة والدته في قضية عشقه..

- هه.. لم تقل لي يا سالم.. هل هذا الكلام صحيح؟

ارتبك سالم:

- في الحقيقة.. يا أمي.. أنا..

- لست صغيراً.. أنت تستلطف حليمة.. إنها فتاة مؤدبة..

قال:

- فعلاً إنها فتاة مؤدبة..

- سأفكر في الأمر، أمهلني بعض الوقت.. لست أرفض فكرة زواجك ولكن، يجب أن نفكر في قضية عملك وسكنك.. هه.. لا تظن أنني لم أفرح لهذه الفكرة، ولكني آخذ الأمور بشكل منطقي..

- لا.. لا بأس يا أمي.. أنت الأصل..

- بارك الله بك يا بني..

☆ ☆ ☆

- ٤ -

بالطبع كان حساب العجوز صحيحاً.. فلم تكن الظروف مهيأة لزواج سالم.. ولكن العجوز خلال أربعة أشهر، باعت قطعة من الأرض.. واشترت بيتاً صغيراً مكوناً من غرفتين مستقلتين، من أجل أن يسكن فيه سالم وعروسه، خطبت له حليمة وهيأت له الظروف ليتزوجها.. وكان موسم القمح ذلك العام وفيراً.. وبعد موسم الحصاد تزوج سالم من حليمة وسط فرحة أهالي القرية، وخاصة أن حليمة ابنة شيخ القرية وقاضيها ومستشار سكانها.. يلجؤون إليه بأبسط مشاكلهم كلها.. وفي ليلة الفرح تلك..

- ألا ترى فرح الجميع يا سالم؟

- فرحتي لا يسعها شيء.. أنت نبض القلب يا جميلة..

أتت زينب إليهما مبتسمة:

- هه.. ألف مبارك يا عروس خالي.. تمت الفرحة أخيراً.

- والله يا زينب لن أنسى فضلك.. لولاك لتأخر هذا الفرح كثيراً..

قالت حليمة:

- زينب أعز صديقاتي يا سالم.. هي الوحيدة التي بحت لها بسرِّ حبك..

- كنت رسول محبة بينكما..

- إن شاء الله نفرح بك قريباً..

- شكراً لك يا حليمة..

ودخل الحفل فجأة رجل متمنطق بالرصاص:

- ما الذي يجري.. من هذا الرجل المتمنطق بالرصاص؟

سكت كل شيء وانشدت الأبصار نحو الرجل المسلح الذي بدأ يطلق النار، أمسكت حليمة سالماً:

- يا إلهي.. انتبه لنفسك يا سالم..

- سأرى من هذا المعتدي الذي عكر علينا صفو فرحتنا..

قهقه الرجل:

- تابعوا فرحكم.. أنا أطلق النار ابتهاجاً..

- لماذا فعلت ذلك أيها الرجل؟

- لست أرغب بتعطيل الفرح، أيها الشاب، وخاصة أن عروسك ابنة شيخ القرية..

- ماذا تريد منا؟ لم نسبب لك أي أذى..

- وأنا لم أسبب أذى لأي من أهالي القرية.. ولكن لي عليكم حق الجيرة.. والحماية.. ويجب أن تؤدوه لي..

قال الشيخ والد حليمة:

- أفي مثل هذا الوقت تطالب بالمال يا جميل؟

-لا.. لا.. لست أقصد المال أيها الشيخ الجليل..

- ماذا تريد إذن؟

- تعلم أنني لم أتزوج، وأرغب في هذه المناسبة أن أخطب إحدى فتياتكم وأتزوجها..

- أنت كبير السن على فتياتنا يا جميل.. أنت تقارب الخمسين..

- إنه سن الرجولة والقوة..

- أجِّل هذا الموضوع.. سنفكر لك بحل فيما بعد..

- أتعدني بذلك أيها الشيخ، أمام الأهالي.. أنا أثق بكلامك..

احتار الشيخ: (اللعين يريد أن يأخذ مني وعداً..)..

- لماذا لذت بالصمت أيها الشيخ.. ألن تعطيني وعداً؟

كان الشيخ قلقاً: - ماذا أفعل يا رب..؟

- سأحول هذا الفرح إلى مأتم، تعلم أن غضبي مدمر.. أعطني وعداً..

- حسن.. سأعطيك..

صرخت فاطمة:

- لا.. لا.. أيها الشيخ.. (انتبه جميل إليها فاقترب):

- أنت أيتها الجميلة.. انتبهي لنفسك قد تكونين الثمن..

- اسمع يا جميل..

رجته فاطمة:

- لا.. لا.. لا تعطه وعداً.. إنه وحش..

سألها هامساً:

- هل قابلته من قبل يا فاطمة؟

- لا.. لا.. أسمع الكثير عن جرائمه..

- اهدئي يا ابنتي يجب أن نسايره..

كان جميل غاضباً:

- اسمعوا أيها الناس.. سأحول هذا الفرح إلى مأتم.. أنا جاد في ذلك..

رجتها زينب:

- أمي.. لا تثيري حفيظته، أرجوك، يبدو رجلاً متوحشاً..

نظر إليها بوقاحة:

- هل هذه ابنتك؟

- ابتعد.. لا تنظر إليها أيها الوحش..

- أيها الشيخ.. بما أنك لم تعطني وعداً.. سأصطحب هذه الفتاة الجميلة معي، أنا أخطبها منك.. يا امرأة هل تقبلين؟

شدت زينب إليها:

- ابتعد أيها المجرم..

- هه.. قبلت إذن، هيا أيها الشيخ، اكتب كتابي على هذه الفتاة..

كانت فاطمة تبكي صارخة:

- لا.. لا..

وقف سالم:

- خسئت أيها النذل.. لن تمس قلامة من ظفرها..

- أوه.. أيها الشيخ، أبعد صهرك عني، لن يكلفني أكثر من طلقة واحدة..

قال الشيخ:

- هدئ من روعك يا جميل.. وأنت يا سالم ابتعد، عد إلى عروسك.. اسمع يا جميل أنا أعدك أن أدبر أمر زواجك..

- أريد أن أتزوج هذه الفتاة..

- وإن لم نزوجك إياها؟

- سأفرغ هذا المخزن في صدور الأهالي، وأحرق البيادر وأسبب لكم مأساة كبيرة.. وأنا جاد فيما أقول..

سألها الشيخ:

- وماذا نفعل يا فاطمة؟

- لن يأخذ زينب إلا على جثتي..

همس: «اهدئي سنحاول مراوغته..» قال له بصوت عال: اسمع يا جميل.. اذهب الآن وعُد إلينا بعد يومين، ستجد الفتاة جاهزة للزواج منك.. اتركنا الآن نكمل الفرح ولا تعكر الجو..

- طيب.. قبلت.. وإن كان ما تقوله صحيحاً.. فسأضعها في عيني.. وإن لم تسلمني هذه الفتاة بعد يومين، ستندم وستندمون جميعاً..

خرج وهو يرفع بندقيته، انتحبت فاطمة: - ما الذي فعلت أيها الشيخ؟

- لا تقلقي يا فاطمة، سنجد الحل المناسب لهذه المشكلة المعقدة..

- تعطي ابنتي لمجرم؟

- لن يكون ذلك، أعدك.. هدأته فقط ليتركنا الآن.. إنه مجرم شرير..

- ما رأيك يا عمي لو نلجأ للدرك؟

- «لا بأس الآن عودوا للرقص والغناء» وهمس إلى العروسين: - أما أنت يا سالم ويا حليمة فحاولا أن تنسيا الموضوع إنه يوم فرحكما..

وفي البيت قصت فاطمة على أمها ما حدث معها في تلك الليلة الماطرة..

- معقول ما تقولينه يا فاطمة؟

- هذا ما جرى يا أمي.. زينب في الداخل، يكاد الخوف يأكلها..

- وماذا نفعل؟ إنه مجرم شرس.. لا سبيل للوقوف أمامه..

- لن أتركه يلمسها ولو قتلني..

- لا تتهوري يا ابنتي.. اهدئي.. سنفكر بالأمر..

☆ ☆ ☆

- ٥ -

واستقر رأي فاطمة والعجوز على تهريب زينب من القرية إلى المدينة المجاورة حيث بكّرت هي وجدّتها في صباح اليوم التالي، متجهتين نحو المدينة دون أن يرافقهما أحد، بالطبع كان عليهما أن يقطعا مسافة كبيرة مشياً على الأقدام.. ورغم أن العجوز كانت تحس بالتعب في المرحلة الأخيرة من الطريق فإنها تابعت المسير ولم تتوقف إلا أمام بيت ابنتها في المدينة.. وارتاحت فاطمة بعض الشيء من إبعاد ابنتها إلى مكان آخر.. وذهبت مع بقية النسوة ليملأن جرارهن من النبع.. في اليوم التالي سألتها إحدى الجارات:

- ألست خائفة يا فاطمة؟ قد يغضب ذلك المجرم ويفعل شيئاً في القرية؟!

- وماذا أستطيع أن أفعل؟ أسلمه ابنتي هكذا، أمعقول؟

- إنها مشكلة حقيقية، هل أخبرت الشيخ بما فعلت؟..

- ليس بعد..

- إنها ورطة.. ورطة قد لا يجد لها مخرجاً..

وملأن جرارهن وتأخرت فاطمة قليلاً مع جارة قريبة..:

- هيا نَعُدْ.. الأولاد وحدهم في الدار.. ولنلحق بالنسوة الأخريات بسرعة..

- «يجب أن تخبري الشيخ يا فاطمة.. لا تتأخري في إخباره..»

وصلتْ إليهما أصوات بين الشجر..

- أسمعت هذه الخربشة؟

- إنه حفيف أوراق الشجر، لا تخافي..

- أتعلمين قبل أشهر، اعترضني المجرم في هذه المنطقة.. كان المطر يهطل.. والريح تعصف.. الحمد لله، أنني نفذت بجلدي في ذلك الحين..

- كيف؟ معقول؟ هل تعاركتما؟

- قاومته، فتركني وهو يتوعدني من أنه سيراني مرة ثانية.. آه.. ربما كان هذا هو سبب إصراره على انتقاء ابنتي للزواج..

سمعت ضحكته خلفها:

- نعم أيتها الجميلة.. أريد أن أحرق قلبك..

انتفضت مذعورة: - (يا إلهي..) أشار جميل إلى المرأة التي ترافق فاطمة:

- اذهبي بسرعة.. هيا.. أريد أن أتحادث وحماتي..

- ولكن.. فاطمة؟

- اذهبي قلت لك.. هيا..

- «طيب.. طيب..» ابتعدت المرأة مترددة..

قال لها:

- هاتي الجرة.. هه.. سأساعدك في حملها..

- اتركني أيها المجرم.. اترك يدي..

- لا.. لن أتركك هذه المرة.. سترتبين اليوم مكان إقامتي.. وفي الغد ستأتي ابنتك للإقامة معي..

شدَّها من يدها وهي تقاوم:

- هذا لن يحدث، أيها المجرم.. اتركني..

- بكاؤك ومقاومتك ومحاولاتك غير المجدية في دفعي.. كل هذا يزيد من تعلقي بك.. هه.. سأحملك.. تعالي.. لن أتركك اليوم..

- لا.. لا..

- من هنا.. سأعبر بك إلى الجانب الآخر من الغابة..

ولكن فحيحاً قوياً انبعث أمامه.. كانت أفعى تقف رافعة رأسها:

- هه سأنزلك، وإياك أن تحاولي الهرب.. سأتخلص من هذه الأفعى التي تعترض طريقنا الآن.. إنها تهجم صوبي.. يا إلهي.. لم تترك لي مجالاً لإشهار البندقية.. لا.. لا.. إنها تلتف حولي..

كانت أفعى ضخمة.. هاجمته كالسهم.. وغرست أنيابها في فخذه.. وحين سقط على الأرض تركته وسط دهشة فاطمة:

- إنها تتركه.. تمر من أمامي، كأنها تنظر إلي، يا إلهي.. إنها تدخل في هذا الحجر.. معقول؟ إنها الأفعى نفسها التي عثرت عليها مجمدة من البرد.. ودفعتها إلى هذا الحجر.. يا إلهي..

كان جميل يتألم: - آه.. آه.. النجدة.. أنا أموت.. أنا أموت..

واقتربت أصوات جمع حاشد من أهالي القرية.. أتَوْا بعدما أخبرتهم المرأة بما جرى..

اندفع سالم يعانق أخته:

- فاطمة.. فاطمة.. الحمد لله أنت بخير.. أين المجرم؟

- إنه هناك يتقلب..

- ماذا فعلت له؟

- لم أفعل له شيئاً، لقد لدغته أفعى..

كان جسمه يزرق وهو يرتجف.. - يبدو أنه يموت..

- إنه غضب الله سبحانه وتعالى..

فكرت مذهولة: - لن أنسى نظرات تلك الأفعى إلي.. أبداً..

- هل نتركه هنا.. أم ننقله إلى مكان آخر.. ما رأيكم يا جماعة؟

- إنه يموت.. لا يمكن أن نفعل شيئاً لإنقاذه.. السم استشرى في جسمه..

كان يتقلب وهو يصرخ: - آه.. النجدة.. أنقذوني..

- سندفنه قريباً من هنا.. بعد أن نتأكد من موته..

- لو طلبنا النصح من الشيخ سيكون ذلك أفضل..

- معك حق.. سأذهب لإحضاره وإحضار المختار أيضاً..

قال سالم:

- اذهبي يا فاطمة معهم.. أين جرتك؟

- انكسرت..

قال: - سأحضر جرة جديدة معي.. وسأملؤها لك..

- نعم هذا أفضل..

☆ ☆ ☆

- ٦ -

لم تنس فاطمة تلك الحادثة الفظيعة رغم مرور السنين.. التقت بالأفعى مراراً، ولم تخف منها، كانت تشعر بالامتنان نحوها.. ولكن الأفعى لم تظهر في الصيف التالي.. رغم أن فاطمة كانت تنتظر أن تراها مع بداية الحر.. وقد فكرت حزينة:

– ربما ذهبت إلى مكان آخر.. أو ربما قتلها أحد الأهالي..

المهم أنها ظلت في ذاكرة فاطمة بلونها الأسود المرقط.. أما زينب فهي الآن متزوجة من ابن خالتها في المدينة.. وقد عاد زوج فاطمة من الغربة.. واشترى بيتاً في المدينة.. وافتتح محلاً تجارياً هناك.. وظلت العجوز وحدها في بيت القرية.. ومرت سنوات والعجوز وحدها في القرية..

– أوحشني غياب سالم.. مضت سنوات على رحيله إلى المهجر.. وأحسن صنعاً بطلب زوجته وأولاده.. آه.. كنت أتسلى بوجود حليمة.. أما الآن فأشعر بالوحدة القاتلة.. سأنزل إلى المدينة غداً، وأقضي بها عدة أيام.. وخاصة أن الربيع بدأت

تباشيره.. سمعت طرقاً على الباب: - خير؟ من الذي يطرق الباب في الليل؟..

تخيلت أنه سالم: - افتحي الباب.. أنا سالم..

فهرعت تفتح الباب، كان يتمنطق ببندقيته أمامها:

- كيف حالك أيتها الصبية؟

- من أنت؟

- معقول؟ لم تعرفيني.. أنا جميل.. الذي يخاف منه الجميع.

- جميل.. قاطع الطريق.. ولكنك مت منذ زمن بعيد.. ودفنوك قرب شجرة الخروب..

- أنت واهمة.. جئت إليك لأصطحبك معي.. أنت امرأة جميلة..

- ماذا تقول؟ تصطحبني؟

- نعم.. سنتزوج.. ونعيش سوية.. منذ زمن طويل وأنا أنتظرك.. هيا.. قبل أن يحضر زوجك..

- زوجي؟ هه.. إنك لن تقدر عليه.. إنه أقوى منك..

- تعالي إلي.. هيا.. هيا.. هه.. (كانت تتقلب في فراشها وهي تصرخ):

- اتركني.. اتركني.. لا..

سمع الجيران صراخها فهرعوا يقفون أمام الباب قال أحدهم:

- سأدفع الباب.. العجوز تتعذب في الداخل.. هه..

كسروا الباب أخيراً:

- إنها تنكمش على نفسها خائفة.. هه.. ما بك يا خالة؟

- أراد ذلك المجرم خطفي..

- أي مجرم؟ لا أحد هنا..

- بلى، ذلك المجرم جميل، كان يتمنطق بندقيته ودخل علي، أراد خطفي، يريد أن يتزوجني.. قال عني: إني أجمل من كل النساء اللواتي قابلهن في حياته..

همهم أحدهم حزيناً: - إنها تخرف.. مسكينة.. أتعلم كم عمرها؟

قال آخر: - أعتقد أنها في الثمانين..

- وماذا نفعل؟

- سنهدئها.. ونرسل من يخبر ابنتيها في المدينة.. بحالتها..

- معك حق..

لم ترضَ العجوز أن تعيش في المدينة.. وبعد أيام عادت إلى القرية، وعادت إليها التهيؤات وقال عنها جيرانها: إنها لا تأكل إلا القليل، وإن خرفها أتى من وحدتها وعزلتها، ومن قلة الغذاء.. ولم تستطع فاطمة أو ابنتها الأخرى إجبارها على العيش معهما، فقد رفضت ذلك بإصرار.. ففي القرية موطن ذكرياتها، وبيتها الذي لم تتخل عنه في حياتها رغم إغراءات أولادها لها بالإقامة معهم.. وازدادت التهيؤات وازدادت ملاحظات الأهالي لها وهي تخرج مبكرة، تدور في القرية، تطرق الأبواب أحياناً.. تتشاجر مع بعض من جيرانها، وحتى مع أقربائها.. لأسباب تتخيلها وتتوهم وقوعها، إنها حالة الوحدة وربما التقدم في السن؟.. وما زالت العجوز تعاني من هذه المشكلة حتى عاد سالم من غربته.. لم تعش المسكينة طويلاً بعد ذلك. وقد بكاها كل من في القرية.. رغم أنها كانت تضايقهم في السنوات الأخيرة..



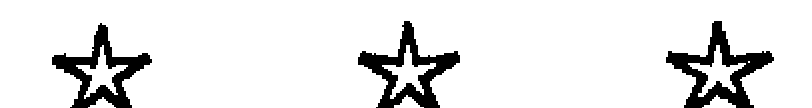
أقوى من الموت

«.. لقد أجريت للطفل فحوصات دقيقة، وقرَّر الأطباء أنه من الأفضل تشريح جثة الأم.. ولكنَّ إبراهيم رفض ذلك بشكل قاطع.. ولكن ألم يتأثر الطفل من تسمم أمه بالفطر؟ المدهش أنها لم تكن تأثيرات خطيرة، فلقد حمى الطفل نفسه من التأثيرات الضارَّة التي تعرَّض لها جسد أمه، وقاوم بقوَّة تأثيرات الفطر السامّ، ونجح في الحدِّ من خطورتها عليه، رغم أن الحادثة كانت مدهشة بالنسبة إلى إبراهيم.. إلا أنَّه تقبَّلها بهدوء وبذل كل إمكاناته ليعيش الطفل، وساعدته أمه في العناية به..»..

أقوى من الموت

تظل الأسئلة والاستفسارات تلح على الإنسان وهو يقف مشدوهاً مستغرباً بعض الظواهر الغامضة التي تحدث حوله..

وكلما ازدادت معارفه العلمية تمكن من الوصول إلى الأجوبة المقنعة عن تلك الأسئلة الملحة، ولكنه أحياناً يقف حائراً مذهولاً أمام ظواهر صعبة التفسير لدرجة كبيرة.. وفيما يلي سنحكي قصة جرت في ريفنا، تدخل أحداثها ضمن هذه الظواهر الغريبة..



- ١ -

كانت جميلة فتاة في سن النضج، تعمل في قريتها الصغيرة، معلمة في المدرسة، وقد شاء لها القدر أن تقع في حب إبراهيم المهندس الزراعي الذي يعمل في مركز الناحية، رغم أن إبراهيم كان يكبرها بنحو (٢٠) عاماً..

تعلق إبراهيم بجميلة الفتاة النضرة الرشيقة ذات العينين السوداوين، وخطبها من أهلها فترددوا في البداية بسبب فارق السن، ولكن سمعة إبراهيم الطيبة لدى أهالي القرى التابعة للمركز الزراعي، شجع والديها على قبوله، وهكذا تزوج إبراهيم من جميلة.. وعاشا حياة سعيدة.. كان ذلك في منتصف الستينيات.. وحتى الآن ما زالت القصة عادية..

ولكن بعد نحو عام ونصف من الزواج تحولت القصة إلى اتجاه مدهش غريب.. ففي حمل جميلة الأول خضعت لعناية بالغة من زوجها، وكان يلبي طلباتها ويسهر على راحتها مع والدته التي تعلقت بجميلة وأحبتها أيضاً، كانت جميلة في أواخر الشهر

السابع.. والوقت شتاء في شهر كانون الأول ١٩٦٦.. عاد إبراهيم يوماً وقد جلب معه كمية من الفطر جلبها لتطبخها جميلة، دخل إبراهيم يحمل كمية الفطر، فوجد جميلة نائمة ولم تكن والدته في البيت، وضع الفطر في المطبخ، وتردد في إيقاظ جميلة، ولكنه أشفق عليها فتركها، وخرج يتسكع في أحد البساتين المطلة على القرية..

نهضت جميلة من نومها ورأت (الفطر) في المطبخ ووضعته على النار لتطهوه، وكانت تحب الفطر كثيراً.. ظنت أن ما أحضره إبراهيم هو فطر عادي جلبه إبراهيم خصيصاً لها.. تأخرت أم إبراهيم قليلاً في العودة، وحين عادت كانت جميلة قد أنهت أكل صحنين من الفطر المطبوخ بتلذذ.. نظرت إليها حماتها مستفهمة:

- فطر.. ومن أين؟

- أحضره إبراهيم، استيقظت فوجدته مكوماً في المطبخ..

- وأين ذهب إبراهيم؟

- لم أره حين استيقاظي من النوم..

- أرني يا ابنتي..

- لماذا تفحصين الفطر بهذه الدقة؟

- ليس كل الفطر قابلاً للأكل، بعضه شديد السُّمِّيَّة..

- ألا يستطيع إبراهيم تمييز الفطر؟ إنه مهندس زراعي..

- من عادته أن يحضر الفطر لي، أنقيه من الشوائب، وأحياناً تكون بينه أنواع سامة..

- إنه لذيذ الطعم، ألا تريدين أن تأكلي يا امرأة عمي؟

كان قلب أم إبراهيم يخفق بشدة وهي تحدث نفسها.. «أمن المعقول؟ يا إلهي، أخاف أن يكون بين ما أكلته جميلة فطور سامة.. ماذا أفعل يا رب؟»..

وبعد فترة قصيرة شعرت جميلة بالألم:

«أحسُّ بمغص في بطني.. يا إلهي..»..

- اتركي كل شيء سأنظف الأوعية، أنت في أواخر شهرك السابع، يجب ألا تتعبي نفسك.. مالك يا جميلة؟

- أحس بمغص شديد.. ولكن لا يزال الوقت مبكراً.. أنا في الشهر السابع..

كاد قلبها ينخلع من صدرها «مغص؟ يا إله السماوات.. قد تكون متسممة بالفطر.. يا إلهي أين إبراهيم؟ لماذا تأخر»..

- آه.. أحس بدوار وشعور بالغثيان..

- تعالي يا ابنتي.. تعالي.. تمددي هنا.. سأعود حالاً.. خرجت ملهوفة.. تبحث عن إبراهيم.. وكانت جميلة تتقلب متألمة وهي تحس بمغص شديد..

«يا إلهي لم أعد أحتمل» وأخيراً عادت أم إبراهيم:

- جميلة أنت بخير؟

- «آه يا امرأة عمي، أنا أتعذب».. ضمتها إلى صدرها وهي تبكي.. وسمعت الباب يفتح ودخل إبراهيم فرآهما على هذه الهيئة:

- ما بها جميلة يا أمي؟

- يبدو أنها تسممت بالفطر.. أغثنا يا بني، امرأتك بوضع خطر جداً..

- تسممت بالفطر؟ كيف؟ ألم تشرفي على تنقيته وتنظيفه بنفسك؟

- جئت إلى البيت، وكانت جميلة قد طبخت الفطر، وأكلت صحنين منه..

- معقول؟ يا إلهي..

- مسكينة، لم تشكّ لحظة واحدة أن الفطر يحوي نباتات سامة.. قالت لي: زوجي مهندس زراعي ويعرف الفطر السام من الفطر القابل للأكل..

- يا إلهي.. لم ألتفت كثيراً إلى هذا، أعلم أنك خبيرة بذلك يا أمي.. هه، سآخذها إلى المستشفى..

- بسرعة.. عجِّل.. ما زال أمامك عشرون متراً على الأقل..

- هيا، تعالَيْ معي يا أمي «حملها وقلبه يتقطع» يا إلهي، حبيبتي جميلة.. ما الذي يحدث لها؟ آه يا إلهي أعني.. لا أريدها أن تموت.. افتحي لي السيارة يا أمي.. ساعدته في مسك الباب.. مددها في المقعد الخلفي.. اجلسي إلى جانبها يا أمي.. إنها ما تزال تتأوه.. يا إلهي..

وهكذا نقل إبراهيم جميلة بسيارته (البيك آب) مزدوجة المقاعد.. وانطلق بها صوب المستشفى القريب.. ولكنها لم تصل هناك إلا جثة هامدة.. ماتت متسممة بالفطر.. والمحزن في الأمر أن زوجها المهندس الزراعي قد ساهم بخروجه من البيت للتسكع وعدم وجود والدته في البيت، في حدوث الكارثة.. إنه القضاء والقدر..

الشيء المحزن أن جميلة كانت حاملاً في الشهر السابع، أي إنها

على وشك الوضع، وبذلك خسر إبراهيم زوجته والطفل الذي كان مقدراً له أن يولد خلال أسابيع..

إنه أمر محزن فعلاً..

ولكن الذي حدث بعد ذلك كان آية في الغرابة.. تجمع أهل القرية حول جثمان الميتة يندبونها ويندبون شبابها.. ورحيلها المبكر، ويحاولون التسرية عن إبراهيم.. وفي صباح اليوم التالي سار معظم الأهالي في جنازتها، وهم متألمون لزوجها الذي كانت حالته تقطع القلب..

- ها أنذا أودعك يا جميلة، وقلبي ينفطر من الأسى، كيف لي أن أهنأ بعيشي بعدك..

«آه يا حبيبتي، كنت زهرة بيتي ودفء قلبي المضيع اليوم.. كيف لي أن أهنأ بحياتي دونك يا جميلة كيف؟» تذكر جلساته معها وهو دامع العينين:

- سيكون طفلاً جميلاً يملأ علينا البيت بهجةً وسعادة.. ستملئين لي البيت أطفالاً يا جميلة..

- أتحب الأطفال إلى هذا الحد؟ آه يا إبراهيم بودي أن أستمر في الإنجاب إلى آخر العمر..

- يا حبيبتي الغالية..

«أحقاً لن أرى جميلة بعد اليوم؟ يا إلهي في يوم وليلة.. انتهت كيف يحدث لها هذا؟ كيف؟ آه.. كانت حياتي ملأى بالأمنيات، مزروعة بالآمال والطموحات السعيدة.. يا إلهي»..

حاول بعض المعزين التسرية عنه:

- خفف عنك يا إبراهيم.. إنه القدر لا راد لقضاء الله..

- وكيف حدث لها ذلك؟ كانت تملأ علي حياتي بهجة وسعادة.. لم تكن مريضة.. كانت حيوية نشيطة، لم تمرض يوماً.. لم تتأوه يوماً..

- وكل الله يا رجل.. صبر جميل وبالله المستعان..

«ها أنذا أقف أمام قبرك يا جميلة، وأرى جثمانك الحبيب يغيب عن ناظري إلى الأبد.. وتوضع فوقه الرخامة الكبيرة لتحجب الضوء والهواء.. إنهم يهيلون التراب فوقها.. يغطونها بأكوام التراب.. يا إلهي.. أمعقول لن أراك بعد اليوم؟ أهكذا مات كل شيء بسرعة كبيرة؟ فقدت الزوجة الحبيبة والولد الذي كان على وشك المجيء.. آه.. عيناي يغشاهما الدمع، وقلبي يتمزق، وأنا أشعر أنني أقف فوق قبرك، فوق قبرك أنت يا أعز الناس..».

- هيا يا إبراهيم.. لقد ذهب الجميع لم يبق إلا أنت..

- يعز علي فراقها.. أمعقول أنها ذهبت إلى الأبد؟

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. خفف عنك يا بني، لا راد لقضاء الله.. ولست أول رجل يفقد امرأته.. خفف عنك.. أنت رجل يجب ألا تبكي هكذا..

- لم تكن جميلة امرأة عادية يا عمّاه..



- ٢ -

غادر إبراهيم المقبرة، وقلبه ينفطر من الأسى، استقبلته أمه بالبكاء أيضاً.. فضمها إلى صدره وبكى طويلاً.. إنه خطؤه، كيف يحضر إلى البيت فطراً إذا لم يكن متأكداً من قابليته للأكل.. ألا يستطيع التمييز، وهو مهندس زراعي بين أنواع الفطر؟ إنه قدر جميلة، كل شيء جرى بسرعة..

ولكن شعوراً اعتراه تلك الليلة أحس بشيء يدفعه نحو المقبرة، ولكن تدفق المعزِّين إلى بيته حال دون تحقيق تلك الرغبة.. وفي ساعة متأخرة من الليل انصرف جميع المعزِّين حتى القريبون من أهله.. أخته وزوجها وأولادها.. وهكذا خلا إبراهيم لنفسه متعباً مرهقاً.. تمدد على السرير بثيابه..

- آه.. أكاد أسقط من التعب..

- ألا تريد أن تأكل شيئاً؟

- لا يا أمي.. أنا متعب.. سأنام..

- النوم أفضل لك، بذلت اليوم أقصى ما في طاقتك.. تصبح على خير يا بني..

- تصبحين على خير يا أمي.. «غرق في النوم بعد لحظات.. ولكنه غرق في حلم عجيب..

☆ ☆ ☆

«آه.. يا إلهي.. جميلة تتألم..

- إبراهيم حبيبي.. لماذا تركتني؟ آه..»..

- لم أقصد أن أتأخر يا حبيبتي، حدث ما أخرني.. أتتألمين من شيء؟

- يبدو أنها آلام المخاض.. آه..

- لم تنهِ الشهر السابع بعد.. معقول؟ سأحضر لك القابلة بسرعة، القابلة القانونية القريبة منا..

- عجّل يا إبراهيم.. عجّل.. آه..

- لو كانت أمي هنا لساعدتك.. إنها عند أختي.. لن أتأخر.. يا حبيبتي...

لم يجد أحداً في بيت القابلة:

- آه لا أحد في بيت القابلة.. أين أذهب؟ يا إلهي.. أمي.. أمي.. «رأى أمه أمامه..

- إبراهيم.. أين أنت؟

- جميلة جاءها المخاض.. ولا أحد عندها.. أين أنت يا أمي؟

- سأتبعك حالاً.. هيا يا بني» كانت جميلة تتقلب وكأنها تلد فعلاً..

- آه.. آه.. أنا أتمزق أموت.. نظرت نحوه: «يبدو أنني أموت.. آه».. «تعال يا بني.. تعال.. لقد نجح في الوصول إلى ثديي.. آه.. آه».

أخذ يردد:

- «جميلة.. جميلة.. يا حبيبتي آه يا جميلة..»..

سمع صوت أمّه الباكي إلى جانبه.. - «خفف عنك يا ولدي..».

- جميلة تبتعد عني.. تبتعد عني.. اختفت جميلة في طيات الغيوم استيقظ مرعوباً.. وقلبه يضرب بعنف.. «آه.. كان حلماً فظيعاً».

فتحت أمه الباب:

- ما بك يا ولدي سمعت صراخك.. كان كابوساً؟

- أنا بخير يا أمي.. اذهبي إلى فراشك..

- هل أغلي لك شيئاً.. (شاي - نعناع - يانسون)؟

- لا يا أمي.. لا أريد شيئاً.. عودي إلى فراشك..

انصرفت أمه: «ما الذي يلح علي؟ أشعر بشيء يدفعني لأزور قبر جميلة.. إنها ساعة متأخرة هه.. الساعة الواحدة والنصف صباحاً.. لا بأس سأرتدي ثيابي وأذهب».



- ٣ -

قاد إبراهيم سيارته (البيك آب) بهدوء صوب المقبرة.. وقد حاذر أن يصدر صوتاً مرتفعاً حتى لا تشعر أمه بذهابه فتقلق عليه..

كان الوقت متأخراً جداً، ركن سيارته إلى جانب المقبرة، ودخل بهدوء، كان الصمت يغلف المكان، وكان حارس المقبرة كما يبدو نائماً..

«ها أنذا أسير بين القبور متجهاً صوب قبرها الطري.. يا إلهي.. ما هذا الشعور الكئيب الذي يلفني.. آه.. رجلي تعثرت بشيء.. سأشعل عود ثقاب .. تفرس إبراهيم فرأى رجلاً كهلاً ينام.. وهو يتغطى بمعطف عتيق.. كان ينام بعمق.. «مسكين.. كأنه دون مأوى» صحا الرجل الكهل مرعوباً : - هه.. من أنت؟

- لا تخف يا عم.. آسف لم أكن أقصد إزعاجك..

- سمح لي الحارس بالمبيت هنا، إنه رجل طيب.. أرجوك لا تفسد عليه..

- لا تخاف لن أفسد عليه.. تابع نومك يا عم..

- أنت مفتش.. تتأكد أنه يقوم بواجبه، ويحرس القبور من اللصوص؟

- لا.. لا تقلق.. تابع نومك..

كان العجوز يتذلل متوسلاً: «أرجوك.. أتوسل إليك، ليس لي مكان آوي إليه».

- يا عم لا تقلق.. تابع نومك.. أنا آسف لإزعاجك..

- وزعت عليهم كل ما أملك، ولفظوني بعيداً.. لم يرأف بحالتي أحد منهم..

- أولادك؟ إنهم عديدون إذن؟

- ثلاثة أبناء توزعوا ثروتي وتركوني مشرداً في الشوارع.. كانت حالتي ميسورة.. تعبت من طرق أبواب المعارف والأقرباء.. بعضهم أحسن إلي، وبعضهم أغلق الباب في وجهي.. جئت إلى هنا بعيداً عن المدينة، حتى لا يعرفني أحد.. أدور بين المزارع والبساتين في النهار وأنام هنا في الليل.. وحين يبدأ المطر والبرد أدخل خربة قديمة مسقوفة أقضي الليل..

- ومن أين تأكل وتشرب؟

- لو خلت الدنيا من المحسنين لأصابها الخراب..

- «معك حق» مد يده إلى جيبه ليعطيه مبلغاً من المال وقد تأثر لحالته..

- لا.. لا.. يا بني.. لم نتقابل في ظروف عادية.. أرجوك لست شحاذاً..

- أستغفر الله.. اعتبرني أحد من سميتهم بالمحسنين..

- لا.. لا.. لا أستطيع في مثل هذه الظروف تقبل إحسانك، اعذرني..

- كما تشاء يا عم.. تابع نومك..

- تزور أحداً عزيزاً على قلبك؟

- آه.. نعم..

- لا بد أنك أحببتها كثيراً..

- كانت زوجتي.. ماتت بحادث..

- أنا آسف.. تابع زيارتك لقبرها.. رحمها الله..

- أهذه أول ليلة تقضيها هنا؟

- هه.. فعلاً إنها أول ليلة أقضيها هكذا؟

- ماذا تقصد؟

نمت ليالي كثيرة دون إزعاج.. آسف لم أقصد إزعاجك أنت.. ولكن هذه الليلة بدأت مضطربة.. سمعنا أصواتاً كثيرة أنا والحارس.. أصواتاً غريبة مختلطة..

- أي نوع من الأصوات؟

- أصوات تأوهات.. كأنها آلام فظيعة.. أصوات نحيب.. وألم.. كانت تذهب وتعود أحياناً.. لم نعرف مصدرها.. كأن ملائكة الموت تحاسب الموتى حساباً قاسياً..

- غريب.. ربما كانت تهيؤات..

- لا.. أبداً.. لو سمعتها وحدي لاعتقدت أنها تهيؤات ولكن الحارس الطيب سمعها معي.. أوه.. أزعجتك يا بني بهذا الكلام.. أرجوك تابع مسيرك نحو قبر زوجتك.. هه.. سأعود للنوم..

- «سأراك يا عم إن شاء الله فيما بعد» غطى العجوز وجهه ورأسه بالمعطف القديم..

- «مسكين» اتجه صوب قبر جميلة «آه.. ها هو القبر الطري.. آه يا إلهي.. ها أنذا.. أزورك يا جميلة، لم أستطع الرقاد بعيداً عنك» سمع أصواتاً غريبة وهو في شروده، ثم سمع حديثاً يدور قربه:

- الريح تزداد.. تبدو أصواتها غريبة.. أمعقول؟

- لا .. فعلاً إنها أصوات غريبة.. لا تبدو بعيدة عن هنا..

- لذلك.. لم أستطع النوم..

كان الكهل يتحادث مع شخص، لا بد أنه حارس المقبرة.. عاد ينصت للحديث:

- إنه أحد زوار المقبرة.. في هذا الاتجاه.. نعم.. ذهب من هنا.. بعد لحظات ميز شكل الحارس..

- آه.. أنا آسف.. هذا أنت يا أستاذ إبراهيم..

- تعرفه إذن؟

- «نعم.. رحمها الله، كانت شابة صغيرة.. أنا آسف سنتركك وحدك» عادت الأصوات الغريبة:

- «تبدو فعلاً أصواتاً غريبة»..

- نعم.. لي أربعون عاماً هنا، لم أسمع مثل هذه الأصوات من قبل..

- إنها قريبة من هنا..

- غريب فعلاً.. هل هم سكان القبور؟ ما الذي يحدث لهم؟ يا إله السماوات..

- أمر محير..

تمتم الكهل وهو يضم معطفه: «يا إلهي إنني أرتعد من الخوف»..

- لا تخف يا عم.. أعتقد أن لهذه الأصوات سبباً..

- بالطبع هناك سبب، ولكن ما هو؟ ووصلهم بوضوح صوت رضيع يصرخ..

- هناك صوت رضيع واضح تماماً..

- نعم.. هذا صحيح..

- كأنه صادر عن هذا القبر الطري..

- يا إلهي.. فعلاً إنه صادر من هذا القبر.. قبر جميلة معقول؟ أحضر أدوات الحفر يا عم.. بسرعة.. أرجوك..

- يا إله السماوات.. سأشعل المصباح وأحضر أدوات الحفر..

وقف شعر رأسه - «أمعقول يا إلهي» وردد الكهل:

- أنا خائف.. جسمي يرتجف..

- ابتعد صوب بيت الحارس.. ولا تقف هنا..

- ستحفرون القبر؟

- نعم.. لن يكون منظراً مألوفاً لك يا عم..

- سأقف على بعد خطوات هنا وأراقب.. أيمكن أن تكون زوجتك حية من جديد؟

- الله أعلم..

عاد يسمع الأصوات، وهي تختلط مع صوت طفل رضيع.. وكانت الأصوات تصدر من القبر بشكل واضح، أحضر حارس المقبرة أدوات الحفر، وأشعل المصباح، وبدأ إبراهيم مع الحارس يحفران قبر جميلة الطري..

- انتبه يا أستاذ إبراهيم سنصل إلى الرخامة..

- فعلاً.. رأس المعول اصطدم بها..

- أبعد المعول الآن.. سأستخدم (الرفش).

- بدأت الرخامة تظهر..

- سأزيل التراب بهدوء.. صوت الرضيع يبدو واضحاً..

- سبحان الله.. معقول؟

- عاوني يا أستاذ إبراهيم لنرفع الرخامة إنها ثقيلة.. عاد الكهل يقول بصوت مرتجف:

- لا أستطيع أن أقف على رجلي.. أشعر بقشعريرة مخيفة..

- ابق بعيداً عنا.. قد تقتلك المفاجأة..

- لا.. لا بأس بدأت أتقبل الفكرة..

- أدر المصباح إلى هذه الجهة.. يا إله السماوات.. ماذا أرى؟

- سبحان الله، إنه منظر لم أره طوال حياتي.. الكفن ملطخ بالدم..

- أعطني سكينك يا عم.. سأهبط إلى القبر..

- انتبه يا بني..

- لا تخف.. سأكون بخير.. هبط إبراهيم إلى القبر.. - «يا إلهي ها أنذا أشق الكفن جهة الرأس.. جميلة باردة جاحظة العينين إنها عارية تحت الكفن، الصغير يتحرك.. يا رب السماوات.. ماذا أرى؟ إنه يرضع من أمه وما زال معلقاً بحبلها السري.. أية معجزة قذفت به خارج رحم أمه وجعلته يزحف حتى ثديها، كأن الثدي ممتلئ.. سأقطع الحبل السري.. وأربط السرة كيفما اتفق.. تعال يا بني.. تعال أيها الصبي الصغير.. ها أنذا أخلع سترتي وأدثرك بها» سأله الحارس:

- هل هي ميتة؟

- نعم.. ولكن ثديها حار..

- ألا ينبض قلبها؟

- تناول مني الصغير.. سأفحصها..

- هات.. بسم الله.. إنه يتحرك نابضاً بالحياة..

تأكيداً إنها ميتة - «عاد كل شيء إلى برودته.. برد الثدي.. كأنني ألمح شبه ابتسامة على وجه جميلة.. لا أثر لنبض الحياة فيها.. وصلت إليَّ رسالتك يا حبيبتي، وجئت إليك مسرعاً لأنقذ الطفل.. طفلك الذي أبى جسدك أن يقتله فحفظ حياته حتى أنقذته من الاختناق.. ها أنذا أعيد كفنك، أربطه بحرص.. وعيناي تدمعان..»..

- أسرع يا بني.. الصغير يرتجف.. يبدو مريضاً.. سأعيد كل شيء إلى ما كان عليه حالاً..

همس إبراهيم: «في حفظ الله يا حبيبتي»..

- سبحان الله.. ولكن ما هي تلك الأصوات التي رافقت صراخه..

- لا أحد يعلم.. ربما كانت أصوات أهل القبور.. تصرخ محتجة، مطالبة بإنقاذ حياة الصغير.. من يعلم؟

أصر حارس المقبرة.. والكهل المشرد أيضاً.. على أن يزورهما إبراهيم من جديد للاطمئنان عن صحة الصبي.. ووعدهما إبراهيم، وانطلق مسرعاً بسيارته إلى المستشفى القريب.. كانت الساعة تقارب الخامسة صباحاً..



- ٤ -

كان في وضع غريب مدهش وهو يحتضن الصغير..

- «آه يا صغيري ما أشد خوفي عليك؟ دخل المستشفى مسرعاً.. قابلته الممرضة المناوبة..:

- خير؟ تحمل رضيعاً؟ كيف تحمله هكذا دون قباط؟.. وأين والدته؟..

- «ماتت أثناء ولادته.. لم أستطع تدبير أموره..»..

- وكيف ربطت صرته هكذا؟

- أرجوك.. أين الطبيب؟ الصبي يرتجف..

- بالطبع.. قد يموت، لا تعرفون العناية به، كأنكم تقتلونه.. من هذه الجاهلة التي ولدته.. سيصاب بالتهاب..؟

- أريد الطبيب.. أرجوك..

- الطبيب المناوب نائم، سأوقظه..

صحا الطبيب وتفهم الوضع وهو يجد الصغير تسوء حالته، قام بعمله بمهارة وسرعة:

- ها قد أعدت ربط صرته، علقي له سيروماً.. وحاولي إعطاءه الحليب..

- حاضر.. سأسخن الحليب أيضاً.. التفت الطبيب صوب إبراهيم:

- «ولكن كيف حدث ذلك؟ تبدو مثقفاً، ولكن ثقافتك لم تفد في العناية بالطفل.. تبدو حالته سيئة تماماً..

- آه.. ماذا سأحكي لك، إنها قصة غريبة لا تصدق..

- ماذا؟

- أرجوك اسمعني يا دكتور.. وتأكد أن كل حرف من قصتي حصل تماماً.. أنا مهندس زراعي، معي شهادة علمية ولكن ما حدث يبدو خارقاً..

- أنا أستمع إليك.. تفضل..

حكى له كل شيء..

- تبدو قصة عجيبة.. ولكنها مقنعة على الأقل بالنسبة إلي.. لأن منظر الطفل العاري لا يمكن أن يكون لطفل عادي..

- هل تعتقد أنه سيعيش؟

- معدته ممتلئة، يبدو أنه رضع من ثدي أمة جيداً، ولكن فعلاً هذا أمر عجيب.. أمه ميتة.. كيف حصل وامتلأ ثديها بحليب ساخن؟!..

- فعلاً كان ثديها ساخناً، وعندما أخرجت الصبي، عاد إلى برودته..

- تأكدت من موتها؟

- نعم.. كنت أعتقدها حية..

- الطفل يحتاج إلى مراقبة دقيقة، قد يبقى في الحاضنة عدة أيام..

- أتعتقد أنه سيعيش؟

- الأعمار بيد الله، ولكن ما حدث يؤكد أنه سيكافح في سبيل الحياة، ليساعدنا الله على إعانته ليعيش.. يمكنك الذهاب إلى بيتك تبدو متعباً..

- هل أستطيع البقاء هنا؟ لا أستطيع تركه..

- اطمئن.. سنرعاه بقدر ما نستطيع.. ثم لا أمكنة هنا للإقامة.. تعلم عدد أسرتنا محدودة.. لسنا في مدينة كبيرة..

- حسن سأذهب بعض الوقت وأعود..

- سنسجله غداً.. ألا تريد شهادة ولادته؟

- معك حق يا دكتور.. تصبح على خير..

- تصبح على خير.. ذهب إبراهيم، وترك قلبه في المستشفى، أخذ يدعو في سره أن يعيش الطفل.. وحين دخل المنزل استقبلته أمه قلقة:

- إبراهيم.. ولدي.. أين كنت؟ أكل قلبي القلق عليك..

- آه يا أمي.. ماذا أقول لك.. كنت في زيارة المقبرة..

- في الليل؟ ما هذا يا بني؟ أوصلت بك العاطفة إلى هذا الحد؟..

- هه.. اجلسي يا أمي أرجوك.. سأحكي لك كل شيء..

- لا أريد أن أسمع شيئاً، تبدو مرهقاً متعباً، معفراً بالتراب..

- يجب أن تسمعي.. يجب أن تعرفي أن لك حفيداً..

- ماذا تقول؟ حفيد؟!

- آه.. كيف أبدأ القصة؟ لا بأس.. كنت نائماً كما تعلمين، فرأيت حلماً مزعجاً، شعرت أن جميلة تناديني لأزورها.. وطغى هذا الشعور إلى درجة لم أستطع مقاومته.. فذهبت إلى المقبرة..

- وبكيت على قبرها وتوجعت، وتعفرت ثيابك بالتراب؟ آه يا بني؟

- اتركيني أكمل يا أمي، لا تقاطعيني.. وسمعت صوتاً من داخل القبر.. كان صوت طفل رضيع يصرخ.. فاقشعر بدني..

- ماذا تقول؟ يا عزة الله؟

- تعاونت أنا والحارس في نبش القبر وحفره من جديد، وكان الصغير ما زال معلقاً بحبل أمه السري، وقد زحف بقدر الله حتى ثديها وأخذ يرضع.

- وهي ميتة؟ يا سبحان الله..

- نعم.. طاش صوابي، قطعت الحبل السري.. ورجوت الحارس أن يعيد التراب إلى القبر، وهرعت إلى المشفى لأنقذ الطفل.. والحمد لله، إنه بخير..

- سبحان الله، يبدو الأمر معجزة.. وماذا سميته؟

- لم أفكر بتسميته، كل همي أن يعيش..

- هو في المشفى الآن؟

- نعم.. وقد طمأنني الطبيب، سأذهب في الغد لرؤيته..

- ادخل إلى الحمام وغيِّر ملابسك واغسل وجهك، واذهب إلى سريرك.. تبدو منهكاً من التعب.. هيا يا بني «أخذت تهمهم مرددة فرحة مدهوشة:

- يا سبحان الله، يبدو الأمر حلماً صعب التصديق.. آه.. أصبح لي حفيد الآن من حيث لا أدري، ترى كيف شكله؟ ما لون عينيه.. هل يشبه والديه؟ آه».

وفي الصباح دخلت الأم إلى غرفة إبراهيم، كان غارقاً في النوم:

- آه.. لا أستطيع أن أوقظه يبدو متعباً..

ولكنه صحا بنفسه وهو يرتجف مرعوباً:

- خير.. يا بني؟

- كان حلماً مزعجاً، سأرتدي ثيابي بسرعة، وأذهب لأطمئن عن الولد...

- سأذهب معك.. سأرتدي ثياب الخروج أيضاً:

☆ ☆ ☆

- ٥ -

وفي المستشفى منعتهما الممرضة من دخول غرفة الطفل:

- هو في غرفة العمليات.. إنه صغير لا يحتمل الجراحة.. لم يتركه الطبيب المناوب لحظة.. أصابته نوبة بكاء لم يتوقف خلالها عن الصراخ، كان بطنه متحجراً، كأن أمعاءه لا تعمل.. مسدودة.. وهذا ما استدعى إجراء جراحة عاجلة..

تمتمت أم إبراهيم «يا رب» وحضر الطبيب بعد دقائق وطمأنها:

- «إنه وسخ الجهاز الهضمي.. لو كانت أمه حية لأعطته (اللابا) من ثديها.. وهي مادة مغذية سائلة تخرج من ثدي الأم مع الولادة، وبوساطتها يتم تنظيف الجهاز الهضمي.. وإلا انسد ومات الطفل.. إنه بخير الآن، لا تقلقا.. كل شيء سيعود إلى طبيعته»..

- أيمكن أن نراه؟

- لا بأس، ولكن لدقائق فقط..

تمتمت العجوز:

- ما شاء الله، إنه جميل الصورة، يشبهك كثيراً يا إبراهيم..

- الحمد لله.. ما زال تحت تأثير المخدر الخفيف..

- ماذا ستسميه؟

- باسم أبي.. ما رأيك يا أمي.. سأدعوه خليلاً.. وإن شاء الله يعيش بيننا هذا الصبي ويتربى في حضنك يا ست الحبايب..

- هذا الصغير أتى إلى الحياة برغبة أمه.. إرادته أن يعيش رغم موتها، كم كانت تحبك رحمها الله..

أشارت إليهما الممرضة:

- أرجوكما... يجب أن تخرجا..

- حالاً.. سنخرج.. تعالَيْ يا أمي..

ولكن الصغير ساءت حالته فجأة، ونصح الطبيب بنقله إلى العاصمة، حيث أدخله مشفى الأطفال.

وظل الصغير يتأرجح بين الموت والحياة حتى أتم الشهرين حيث بدأت حالته تستقر.. وقد أجريت له فحوصات دقيقة،

وقرر الأطباء أنه من الأفضل تشريح جثة الأم.. ولكن إبراهيم رفض ذلك بشكل قاطع.. ولكن ألم يتأثر الطفل من تسمم أمه بالفطر؟ المدهش أنها لم تكن تأثيرات خطيرة، فلقد حمى الطفل نفسه من التأثيرات الضارة التي تعرَّض لها جسد أمه.. وقاوم بقوة تأثيرات الفطر السام.. ونجح في الحد من خطورتها عليه.. رغم أن الحادثة كانت مدهشة بالنسبة إلى إبراهيم، إلا أنه تقبلها بهدوء وبذل كل إمكاناته ليعيش الطفل.. وساعدته أمه في العناية به..

أما عن موقف أهل البلدة بعد أن سمعوا بالحادثة فقد استغربوا بالطبع حدوثها، ولكنهم تقبلوا الأمر بحذر، وظلوا ينظرون إلى الطفل نظرة الخارج من القبر، وهم يتخيلونه يخرج من رحم أمه ويندفع نحو ثديها يرضع الحليب الذي درَّ عليه بشكل لا يصدق.. وقد تشاءموا منه.. إلى حد ما، وفي أحد الأيام طرق باب منزل إبراهيم..

- الطفل نائم الآن أخشى أن توقظه هذه الطرقات.. افتح الباب بسرعة يا إبراهيم..

- حسن يا أمي «كان حارس المقبرة وخلفه الكهل المتشرد» أهلاً أهلاً بكما.. تفضلا..

- وعدتنا أن تزورنا وتطمئننا عن الطفل.. ولم نجد بداً بعد أن تأخرت علينا من المجيء إليك.. رغم أن الاستدلال على منزلك كان سهلاً.. أنت معروف في البلدة جيداً..

قال الكهل: - قضيت أياماً، لا أرى فيها النوم، أدهشتني الحادثة، وهزتني من الأعماق وكنت يائساً.. هذا الصبي الصغير قاوم الموت بقوة، وتمكن من الحصول على ما أراده.. وأنا أعيش الضنك والفقر وعقوق الأولاد، هل يجب أن أستسلم؟ لماذا لا أضع من هذا الصبي نموذجاً لي لأكافح في سبيل الحياة.. وتحسين ظروف معيشتي..؟ ونجحت..

تساءل إبراهيم: - نجح، كيف؟ هل عاد إلى أولاده؟

- لا.. ولكنه يعمل في قرية قريبة، حارساً للمدرسة.. لقد أشفقوا عليه، وكلفوه بهذه الوظيفة.. ورغم أنهم أفرغوا له غرفة قرب باب المدرسة ليعيش فيها، فلم ينقطع عن زيارتي يوماً.. وفي كل مرة يسألني عن الطفل وهل ما زال حياً؟

- أنا مسرور برؤيتكما، فلولاكما لما حصلت على خليل..

- اسمه خليل إذن؟ يمكننا أن نراه؟

- إنه نائم.. وحالما يستيقظ سأحضره لتشاهداه.. أمي.. يا أمي.. تعالي إلى هنا..

- ماذا تريد يا بني؟

- سأعرفك على من ساعداني في إنقاذ خليل من الموت..

- أهلاً وسهلاً..

همس الكهل في أذن حارس المقبرة:

- لماذا لم تقل له ما حدث؟

- وبأية صيغة وأمه جالسة معنا طوال الوقت؟..

ثم أحضر إبراهيم الطفل إليهما ليشاهداه..

- يا سبحان الله.. إنه طفل جميل فعلاً..

- ما شاء الله.. ما شاء الله.. وصحته تبدو جيدة..

همس حارس المقبرة:

- إبراهيم.. هل يمكن أن أحادثك على انفراد..

- بالطبع.. بالطبع «ثم قال لأمه: - خذي خليل يا أمي إلى الداخل»..

- سأرضعه.. زجاجة الحليب جاهزة للتسخين.. وبعد خروجها والطفل:

- ماذا تريد أن تقول لي يا عم؟

- آه.. سيحكي لك كل شيء.. تفضل احك له..

- يا بني.. أرى حلماً يتكرر يومياً، الميتة تطالب بولدها.. إنها ترغب أن يزور قبرها..

- معقول؟ هذا أمر مستغرب، لم يخطر على بالي فعلاً أن أصطحب خليلاً لزيارة قبر أمه.. منذ الصباح سأحمله إلى قبرها..

- وأول أمس سمعنا نداءً وتأوهات من القبر فعلاً.. وقد تكررت عدة مرات في الليل ثم توقفت..

- تأوهات؟

- كأنها تبكي وتناغي طفلاً غير موجود..

- آه.. فهمت.. ولكن كيف يحدث ذلك؟ هل جميلة ما زالت حية..؟!

- أرجوك يا أستاذ إبراهيم، تعال لزيارتنا اليوم..

- طيب.. طيب.. وفي تلك الليلة ذهب إبراهيم وخليل إلى المقبرة، كان خليل يبكي بقوة:

- ها أنذا أزورك يا جميلة.. ومعي خليل ابننا الذي كافح ليعيش آه.. يا حبيبتي أحسك سعيدة بهذه الزيارة.. سأتركه فوق القبر.. لدقائق.. يا إلهي.. إنه يتوقف عن البكاء.. ويحدق في البعيد كأنه يرى شبحاً.. هه.. ها أنذا أبعده عن القبر.. إنه يبكي.. وعندما أعيده إليه يصمت.. ويناغي أحياناً.. سبحان الله كأن الطفل يرى شبح أمه..؟

- إنه يشعر بوجود كائن غريب.. قربه.. لا نراه نحن.. إنه طيف أمه بالتأكيد..

- إنه يسكن كأنه ارتاح لحضن دافئ.. آه.. إنه يغفو ويغرق في النوم..

- حاول أن تحمله وهو هكذا. ولتبعده وهو نائم عن القبر..

أبعده إبراهيم، فعاد إلى البكاء الحاد - «هه سأعيدك يا صغيري، لتنام فوق القبر.. إنه يسكت.. سبحان الله.. عاد إلى النوم».

- كأنها تريد الطفل.. ولن تسمح له بالذهاب من المقبرة..

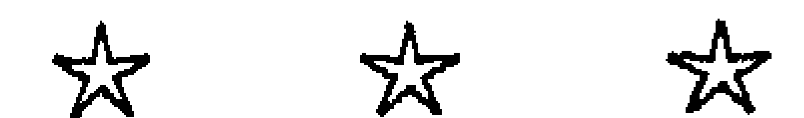
- لا.. يا عم.. حينما يكتفي طيفها من الطفل.. ستسمح لنا بالذهاب، لم تكتف منه بعد..

- سبحان الله.. ما أكثر الأسرار التي نجهلها في هذا الكون..

- كلما تمثلت ما حصل يا أستاذ إبراهيم.. أشعر بقشعريرة تصيبني، وأنا أستعيد صورة الطفل الزاحف إلى ثدي أمه تحت الكفن..

- إنه راقد الآن سأحاول أن أحمله بعيداً.. هه..

- لم يطلق صوتاً.. يبدو أن المرحومة اكتفت منه.. وسمحت له بالذهاب ليكمل مسيرة حياته الغريبة..



وفعلاً كانت حياة خليل غريبة، فحين شبَّ وترعرع بعد أن تزوج والده، أذاقته زوجة أبيه صنوفاً من العذاب وقد رأت محبة والده الشديدة له..

ولم يخبر والده بما كانت تفعل به زوجة أبيه، كان طيباً هادئاً، لم يرغب في إثارة المتاعب لوالده.. ورغم أن زوجة أبيه لم تنجب أطفالاً، فإن كراهيتها له وغيرتها من محبة والده له، ظلت تنمو إلى درجة أنها حاولت قتله.. وتشاء المصادفة أن يكتشف الأب المحاولة.. فأرسله إلى بيت والدته العجوز، التي تركت بيته بعد زواجه، فاستقبلته العجوز بالحبِّ والحنان..

ولم يطل الوقت حتى وجدت زوجة أبيه نفسها مطرودة مطلقة.. وهكذا عاش خليل، وكبر وترعرع، وظل الناس طوال مسيرة حياته يلقبونه بابن الميتة، كان هذا اللقب يزعجه في البداية، ولكنه اعتاده.. وخليل يعيش الآن في أحد أحياء دمشق، وقد تزوج وأنجب الأولاد، رغم أنه في السادسة والعشرين من عمره.. نتيجة إلحاح والده الذي تقدم في السن..

ولكن كيف يمكن تفسير ولادة ابن الميتة؟ وزحفه ليرضع من ثدي أمه؟ وصراخه المستمر في القبر حتى تم إنقاذه؟..

القضية ليست معجزة في عرف العلم.. إنها تدخل في مجال مصارعة الموت.. المادة الحية تصارع الموت حتى النهاية.. وتحاول التكيف مع نمط الحياة حولها..

هي معجزة في عرف الناس، وتصاريف القدر العجيبة..



جثث محنَّطة

بدأت الحكاية عام ١٩٧٩ في إحدى المدن الكبرى العربيَّة.. كان عاصم طالباً في الجامعة.. اضطر إلى استئجار غرفة في بيت امرأة عجوز، بعد أن تعذَّر عليه السكن في المدينة الجامعيَّة.. وقد ارتأى أن يستأجر غرفة وحده، حتى لا يضيِّع الوقت بالاختلاط بأصحابه.

كان يدرس في كلية العلوم.. وكانت العجوز صاحبة البيت أرملة وحيدة تزوج أولادها وابتعدوا عنها، وليس إلا ابنتها الصغرى في العاصمة، تزورها في فترات متباعدة.. ورغم الشروط القاسية التي وضعتها العجوز، قَبِل عاصم أن يسكن الغرفة، فلم يكن أمامه مجال للتردُّد بعد أن يئس من العثور على مكان.. وفي أول ليلة له في الغرفة..

- «الحمد لله رتبت أغراضي جيداً.. آه.. أشعر بتعب فظيع.. سأنام الآن.. رغم إحساسي بالجوع» وصله رنين جرس الباب

الخارجي.. «آه.. إنها الحادية عشرة تقريباً.. من الذي يزور العجوز في مثل هذه الساعة؟» سمع صوت فتح باب.. وصوت رجل يهمهم ثم سمع صوت العجوز:

- ماذا تريد؟

- أتيت لأسلم عليك، لأطمئن عنك، أيمكنني الدخول؟

- في هذه الساعة أتيت للسلام عليّ.. لقد أيقظتني من نومي.. أفقت خائفة ومرعوبة..

- أنا آسف.. ولكني وصلت من السفر الآن..

- لا أرى معك شيئاً..

- تركت الحقيبة في فندق قريب.. وجئت للاطمئنان عنك..

- أنا بخير.. اطمئن.. يمكنك الذهاب الآن.. تفضل.. سأغلق الباب..

- اهدئي أرجوك..

- سأصرخ إذا لم تذهب..

- لا.. لا.. سأذهب، تصبحين على خير..

سمع صوت الباب وهو يغلق ثم سمع طرقات على باب غرفته:

- تفضلي يا خالة..

- لم تنم بعد؟

- كنت أستعد للنوم..

- «إنها الحادية عشرة وخمس دقائق.. سمحت لك اليوم بشكل استثنائي أن تترك الضوء حتى هذه الساعة.. في الغد يجب أن تعتاد على النوم في العاشرة والنصف.... هه.. سأطفئ لك الضوء، تصبح على خير..» أغلقت خلفها الباب..

فكر عاصم بغضب:

- إنها عجوز غريبة الطبع.. كيف لن تسمح لي بإنارة المصباح بعد العاشرة والنصف؟ لن أقبل هذا، سأعطيها مبلغاً إضافياً، هذا ما ترغبه، إنها امرأة جشعة.. ولكن من كان ذلك الرجل الذي طرق عليها الباب في هذه الساعة المتأخرة من الليل؟ هل هو ابنها؟ .. سبحان الله.. يجب أن أنام..

غفا عاصم ثم صحا على أصوات غريبة..

وصل إليه صوت غطيط ثم صوت خطوات مضطربة ثم صوت سقوط جسم معدني.. وبقي مستيقظاً بعض الوقت، وهو يسمع صوت الخطوات المضطربة.

«يبدو أن العجوز قد أصابها الأرق وهي تتجول في المنزل.. سأعاود النوم»..

صحا عاصم على صوت المنبه:

- إنها السادسة الآن، يجب أن أذهب إلى الجامعة بسرعة.. سأغسل وجهي.. أرى ضوءاً في المطبخ المعتم، يبدو أن العجوز قد استيقظت مبكِّرة..

اقترب بهدوء:

- صباح الخير يا خالة..

- صباح الخير.. ماذا تريد؟

فكَّر في نفسه:

- «تبدو عدوانيَّة حتى في الصباح» ثم قال لها: «سأغسل وجهي فقط».

- المغسلة في الطرف الآخر..

- آسف جئت لأصبِّح عليك.. «أعوذ بالله من هذا الوجه العابس»..

وعاد عاصم من الجامعة في نحو الثامنة مساءً، كانت العجوز

في غرفتها تجلس وهي تقوم ببعض الأعمال.. وبيدها إبرة طويلة، وأمامها بعض الأقمشة، بدت وكأنها ترتّق الأثواب.. هذا ما اعتقدته في البداية.. ولكن شيئاً آخر حصل في تلك الليلة..

- الحمد لله، لست جائعاً اليوم، أكلت شيئاً خفيفاً في الجامعة.. إنها العاشرة والنصف يجب أن أطفئ المصباح حسب تعليمات العجوز الصارمة.. هه.. آه.. أنا متعب ربما لأنني لا أستريح في النهار بعد الغداء.. سأستيقظ في الخامسة صباحاً، لأحضِّر التجربة التي سنجريها غداً في المخبر..

وصحا في الليل على صوت سقوط جسم معدني أيضاً، ووصله صوت غطيط:

- ما هذا؟ صوت خطوات؟ العجوز تتمشّى، يبدو أن الأرق أصابها أيضاً..

سمع صوت رنين جرس الباب الخارجي:

- غريب من الذي يزور العجوز في هذه الساعة المتأخرة؟

ثم سمع صوت فتح الباب:

- أنت؟ ماذا تريد؟

- جئت أطمئن عنك..

- ألم أقل لك لا أريد رؤية وجهك؟..

- يكفي.. يكفي.. لماذا الإصرار أن تعيشي وحيدة بعيدة عنّا؟

- لأنني لا أطيق أن أراكم الآن، اخرج قبل أن أصرخ.. لا أريدك، لا أريد رؤيتك.. لا أريد رؤيتك..

- يكفي.. يكفي.. سأذهب..

- «لا أريد رؤيتك، اذهب..» وظلت تصرخ في وجه الرجل حتى بعد أن أغلقت الباب وانفجرت بالبكاء..

فكَّر عاصم:

«إنه الرجل نفسه الذي أتى البارحة.. يبدو أنها ما زالت تبكي.. هل أذهب لأخفف عنها؟ أم إن ذلك يعتبر فضولاً مني؟ قد يكون ابنها أو أحد أقربائها القريبين منها.. هه.. إن صوت البكاء يتوقف.. اسمع صوت خطواتها الآن.. إنها قلقة تزرع الصالة جيئة وذهاباً»..

وصله صوت مناغاة.. كانت العجوز كمن تهدهد طفلاً:

- آه.. كان صغيراً.. أبيض كالثلج.. أشقر الشعر، تحسدني جاراتي على جماله وطلعته البهيَّة.. نم يا بني.. نم.. نم..

فكَّر عاصم أيضاً:

«ما الذي جرى لها؟ تبدو حزينة متألّمة، كأنها تناغي طفلها.. أيمكن أن يكون الرجل الذي يأتيها كل يوم هو ابنها؟ أم إنه شخص آخر؟»..

سمع صوتها وهي تناغي الطفل وتبكي:

- آه.. كان خطئي حين تركته في البيت، وأتى الأنذال بعد ذلك.. نم يا حبيبي نَمْ.

سمع صوت بكائها ثم سمع صوت سقوط جسم:

- يبدو أنها سقطت.. هه.. سأرى ما بها..

ضغط مفتاح النور:

- أين هي؟ لا أرى أحداً..؟

صرخ بلهفة:

- خالة.. يا خالة.. أين أنت..؟ سأبحث عنها في الغرف الأخرى..

جمده صوتها الغاضب:

- ماذا تفعل في هذه الساعة المتأخرة؟ ولماذا تناديني؟

- سمعت صوتك يا خالة.. كنت تتألمين.. وسمعت صوت سقوط جسم.. خفت أن يكون شيئاً قد حدث لك..

- كنت تحلم.. كنت نائمة في فراشي.. عد إلى غرفتك وتابع نومك..

- ولكن؟

- هيّا عد إلى نومك.. سأطفئ النور، تصبح على خير..

فكَّر عاصم:

«إنها امرأة غريبة.. أمعقول أنني كنت أحلم؟ مستحيل.. أيقظتني صوت الضجة ورنين جرس الباب الخارجي، وصوت ذلك الغريب وهو يحادثها.. ثم صوتها وهي تئن وتناغي طفلاً غير مرئي.. ثم ذلك السقوط الأشبه بسقوط جسم بشري.. معقول؟».

أقنع عاصم نفسه أنَّ ما رآه لا يعدو أن يكون وهماً، صَوَّرَتْه له مخيلته وهو بين النائم والمستيقظ..

وانتابه الأرق تلك الليلة بعض الوقت ثم غفا أخيراً، واستيقظ على رنين جرس المنبه..

- يجب أن أغسل وجهي وأدرس بعض الوقت.. الظلام ما زال يخيِّم على البيت يبدو أنها لم تستيقظ بعد..

ولكنه وجدها تجلس في المطبخ المعتم:

- صباح الخير يا خالة..

- صباح الخير..

«إنها عابسة مقطبة لا ترغب أن أتبادل معها الحديث.. لا بأس.. إنها تغلي القهوة.. آه.. ما أجمل رائحة القهوة، كم أشتهي شرب القهوة الآن.. إنها ترمقني وأنا أراقب القهوة»..

- هل غسلت وجهك؟ يمكنك الآن العودة إلى غرفتك سأطفئ النور..

هزَّ رأسه حزيناً:

- اعتقدت أنها ستدعوني إلى مشاركتها القهوة.. لا بأس..

وفي مقصف الجامعة رآه حامد شارداً:

- تبدو شارداً يا عاصم؟

تنهد مهموماً: - لا .. أنا بخير..

- بل إن هناك ما يشغلك.. أنا متأكد من ذلك..

- لا تبدو بسيطة يا عاصم.. حدثني أرجوك.. ألسنا صديقين؟

- بالطبع.. ولكنها أمور بسيطة بالفعل..

- من معرفتي بك.. أعلم أنك لا تنشغل بالأمور البسيطة..

- آه.. ماذا أقول لك إنه أمر محيِّر يا حامد..

حدَّث عاصم صديقه حامداً بما يراه في البيت الذي يعيش فيه.. طمأنه حامد أن العملية ليست سوى خيالات أو تهيؤات ساهمت في رسمها شخصية العجوز الغامضة.. وحاول إقناعه بالالتفات إلى دروسه وعدم الانشغال بأمور ليست له بها علاقة..

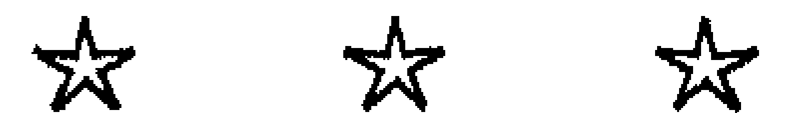
وفي اليوم نفسه أوصل حامد صديقه عاصماً إلى باب بيت العجوز، وطلب منه ألا يلقي بالاً لما يسمع، وأن ينام مبكِّراً ويصحو مبكِّراً ليغادر البيت إلى الجامعة..

وفي تلك الليلة لم ينتبه إلى موعد إطفاء النور، فدخلت العجوز غاضبة:

«سأطفئ النور.. إنها الحادية عشرة إلّا ثلثاً»..

تنهد مفكِّراً: «سبحان الله ما أشدّ جديّة هذه المرأة.. هه.. سأنام ولن أصحو على شيء»..

وغفا من التعب، رأى نفسه في الحلم وسط عالم غريب.



«آه.. ها أنذا أسير في قرية عجيبة، أشخاصها طوال كالمردة.. إنهم يحدقون بي بعيون جاحظة.. آه.. أشعر بالخوف»..

رأى العجوز عملاقة تنظر إليه بقوة:

- تعال أيها الصغير، لِمَ تعذبني بهروبك؟

- اتركيني.. لست صغيراً..

- بل أنت صغيري، وحياتي.. تعال إليَّ.. تعالَ..

- «يا إلهي، وجهها مخيف، إنها تقترب مني.. تقبض على خناقي، آه.. يا إلهي» شعر بأصابعها حول عنقه:

- لن تهرب مني بعد الآن..

ولكنها ضمته إليها فجأة:

- «إنها ترتجف وهي تضمني.. آه»..

وعادت أصابعها تضغط على عنقه:

- آه يا بنيّ.. قتلتك.. سامحني..

☆ ☆ ☆

صحا عاصم والعرق يتصبب منه:

«آه.. آه.. يا إلهي.. كان حلماً مخيفاً..».

سمع أيضاً صوت سقوط جسم معدني:

- ما هذا الصوت؟ وعدت حامداً ألا أتأثر ولا أهتم.. هه.. آه.. ما زال وجهها البشع يتراءى أمامي.. يا إلهي..

وصل إليه صوت رنين جرس الباب الخارجي، ثم صوت فتح الباب:

- كيف حالك اليوم؟

- أنت أيضاً؟ لماذا تزعجني كل يوم؟

- أنا لا أزعجك.. أنا أخاف عليك، وآتي للاطمئنان عنك..

- «اذهب من هنا، لا أريد أن أراك.. اذهب من هنا..» سمع همهمة طفلة:

- ألا تريدين رؤية سلوى؟ إنها تذكرك دوماً..

- سلوى..؟ ابنتي الصغيرة.. آه؟

- اسمعي يا أمي.. دعينا ندخل لأجل سلوى.. إنها تريد الدخول..

- اترك سلوى تدخل وانتظر خارج المنزل..

- ولكن؟

- تعالي يا صغيرتي... آه... من الذي ربط لك ضفيرتك؟

كان عاصم يراجع نفسه:

- مستحيل؟ إنه صوت العجوز، وهو يحاكي طفلة صغيرة..

وصل إليه صوت الطفلة:

- أريد أن ألعب..

- تعالي يا صغيرتي سأحضر لك اللعب.. هه..

أخذت العجوز تبكي:

- آه.. يا إلهي.. كيف تركت صغيري يذهب؟ إنه يتألَّم.. يا إلهي..

- «ماذا يحدث في هذا البيت؟ ولكن طلب مني حامد أن أظلَّ بعيداً لا أتأثر ولا أتدخل.. ولا أبالي.. ولكن كيف أستطيع ذلك؟ هه.. سأتظاهر أنني سأذهب لأشرب الماء..».

تسلل بهدوء من فراشه وفتح الباب:

- لا أرى شيئاً، الظلام يخيِّم على الصالة.. مستحيل.. غرفة العجوز ينبعث النور من داخلها.. يا إلهي سامحني، سأحاول أن

أنظر من ثقب الباب.. هه.. ماذا أرى، مستحيل؟ أحدهم يتمدَّد على السرير وينام.. إنه رجل، رجل صغير السن.. العجوز.. تقف تتجه نحو الباب.. يا إلهي.. سأركض باتجاه المطبخ على رؤوس أصابعي..

جمد من الخوف:

- ماذا تفعل هنا؟

- أحسست بالعطش.. نهضت لأشرب..

- لماذا لم تشعل النور؟

- خفت أن أزعجك يا خالة..

- هه.. عد إلى النوم بسرعة..

- «إنها تطفئ النور.. البيت يسبح في ظلام دامس.. ها أنذا أتلمّس الجدار في طريقي إلى غرفتي.. هه.. عثرت على الباب..».

«مستحيل، شيء أشبه بالحلم.. إنه منزل مليء بالأسرار.. أوه لا أستطيع النوم، قلبي ينبض بعنف، أريد أن أفهم ما يحصل..».

ولم يغمض له جفن تلك الليلة، نهض في الصباح متعباً ذاهلاً، رأى العجوز في المطبخ، ورأى غرفتها مفتوحة، ولم يلحظ شيئاً داخلها..

ولم ير الرجل الممدَّد.. الرجل صغير السن الذي رآه في الليل..

إذ لم يتمكن من التحديق في غرفة العجوز المعتمة قليلاً خوفاً من أن يثير فضول العجوز وانتباهها.. حيّاها كالعادة، فردت عليه ببرود.. وبعد أن غسل وجهه وارتدى ثيابه اتجه نحو الجامعة.. بحث عن حامد حتى وجده.. وقاده إلى مقصف الجامعة وحكى له ما رآه:

- مستحيل يا حامد.. ذلك المنزل الغريب يكاد يصيبني بالجنون..

- سمعت صوت الطفلة وصوت الرجل، وحين خرجت لم تر شيئاً، وحين نظرت من ثقب الباب، رأيت ذلك الرجل صغير السن يتمدَّد فوق السرير.. إنها قصة غير مترابطة غير مقنعة؟

- وهذا ما يحيرني..

عَكَّر عليهما خلوتهما صوت فتاة في مقتبل العمر:

- كيف حالك يا عاصم؟

- أهلاً يا لينا.. أنا بخير.. كيف حالك أنت؟

- الحمد لله.. يبدو عليك التعب.. ألم تنم أمس؟

- إنه متعب فعلاً.. ولم ينم أمس..

- آه.. إنه حامد زميلي وصديقي، هذه لينا ابنة عمي، هي تسكن في العاصمة مع أهلها.. سنة أولى طب..

نهض حامد حاملاً كتبه:

- أهلاً.. تشرفنا.. أنا ذاهب إلى المحاضرة الآن.. أراك قريباً.. بالإذن يا آنسة..

- مع السلامة..

نظرت لينا نحوه باهتمام:

- ما الذي يتعبك يا عاصم؟ أتعلم أهلي غاضبون منك، لم تزرنا حتى الآن..

- أنا آسف.. منهاجنا ضخم، والدوام طويل كما تعلمين..

- على الأقل يوم الجمعة..

- لم أستقر في مسكني الجديد سوى منذ أيام.. تأخرت عن تقديم الطلب إلى المدينة الجامعية.. أسكن حالياً في غرفة عند عجوز متعبة كثيرة الشروط..

- عجوز؟ في الثلاثين مثلاً؟

- آه.. على عادتك تناكدينني..

- قضينا طفولة مشتركة.. كانت طفولة رائعة.. أما تزال تصرُّ أني مناكدة؟

- الآن لا أدري.. ولكنك كنت مناكدة طويلة اللسان..

- هه.. عاصم.. لماذا لا تتناول الغذاء عندنا اليوم، سيسر أهلي بك كثيراً..

- في وقت آخر إن شاء الله.. هه.. سأزوركم يوم الجمعة القادم بالتأكيد..

- هه.. ها هي صديقتي سلوى قادمة.. إنها زميلتي في الكليّة وجارتي..

نظر عاصم نحو الفتاة القادمة مذهولاً:

- كيف حالك يا لينا؟ هه.. أنت جاهزة للذهاب إلى البيت الآن؟

- عاصم ابن عمي، يدرس العلوم الطبيعيّة..

- أهلاً وسهلاً، تشرفنا..

- «سلوى؟ شعرها مجدول بضفيرتين أيضاً؟ يا إلهي، ما أعذب وجهها؟».

همست لينا:

- «هه.. ما بك.؟ أعجبتك؟»..

- هه.. أنا آسف..

همس:

- آه يا لينا.. بالطبع أعجبتني.. منذ النظرة الأولى..

عادت لينا تهمس:

- إن أردت سأدعوها يوم الجمعة القادم على الغداء.. اتفقنا..

- لا بأس.. طيب..

نهضت سلوى:

- بالإذن يا أستاذ عاصم..

- مع السلامة..

جمد في مكانه:

- ما بي كالطفل، قلبي يخفق بشدة..

صرخت لينا تذكره:

- لا تنسَ يوم الجمعة على الغداء..

- طيّب.. طيّب..

وفي تلك الليلة:

- لا أرى أحداً.. البيت في ظلام.. سآوي إلى غرفتي.. إنها الثامنة الآن.. سأضع كتبي هنا، وأتعرَّف البيت.. أتأكد من عدم وجود العجوز.. هه..

أشعل نور الصالة والمطبخ، بدت غرفة العجوز مغلقة:

- قد تكون نائمة.. سأطرق عليها الباب..

طرق على الباب:

- يا خالة.. يا خالة.. أنت هنا؟ لا أحد يجيب، سأفتح الباب.. ما هذا؟! إنه شاب صغير ممدَّد، إنه ينام، يا إلهي إنه أشبه بجثَّة.. إنه بلا حسّ.. آه..

شعر بدوار، وكاد يقع على الأرض:

- سأعود إلى غرفتي.. آه يا إلهي..

ولكن العجوز فتحت الباب، ورأته على باب غرفته:

- أنت هنا؟ متى وصلت؟

- الآن.. كنت أريد أن أتناول كأساً من الماء.. لم أغير ثيابي بعد..

- خرجت منذ خمس دقائق لإحضار الخبز.. ليس من عادتك أن تبكِّر هكذا..

- آه.. أشعر بالتعب.. يبدو أنني لست على ما يرام..

- اذهب إلى غرفتك ونم.. ستصبح في أحسن حال..

فكَّر:

- لم تعرض عليَّ خدمة من خدماتها وأنا أرتجف أمامها كالعصفور.. آه يا إلهي.. في غرفتها جثة رجل.. آه.. سأتمدَّد على السرير، لا أزال أرتجف، يا إلهي.. جثة..؟ معقول؟ لو كانت جثَّة لتفسَّخت وأنتَنَتْ وملأت رائحتها المكان.. يا إلهي.. هذا البيت سيصيبني بالجنون.. سأتناول قرصاً مهدئاً، جيِّد أنني ملأت الزجاجة بالماء.. يا إلهي غير معقول. آه..

نام أخيراً ورأى حلماً مرعباً، كانت العجوز تطارده:

- لماذا تضايقني أيها الشاب.. سأقتلك ولن تعيش لحظة بعد الآن.. تعال.. تعال..

- في يدها أظافر كالمخالب.. يا إلهي.. لا.. لا..

كان هناك شاب يبعدها عنه:

- اتركيه يا أمي، لا ذنب له.. اتركيه..

- لا.. لا.. لن أتركه.. ها.. ها.. تعال.. تعال..

- أرجوك يا أمي.. إنه بريء.. لماذا تريدين قتله؟

- آه يا إلهي..

استيقظ مرعوباً خائفاً:

- آه.. يا إلهي.. كان حلماً فظيعاً.. أشعر بالدوار والتعب. سأعاود النوم.. إنها الحادية عشرة الآن.. يا إلهي..

سمع صوت رنين جرس الباب الخارجي، والحوار نفسه تكرَّر أيضاً:

- ماذا تريد؟ لماذا جئت هنا؟

- سأدخل أنا وسلوى..

سمع صوت الطفلة تقول:

- سيدخل معي.. تعال.. تعال..

- ولكن يا صغيرتي..؟

- أرجوك.. هه.. ادخل.. إنها طيبة القلب.. هل اشتريت لي لعباً؟

- لديك الكثير من اللعب.. تعالي أولاً سأجدل ضفيرتيك..

كاد عاصم يصاب بالجنون:

- غير معقول.. سأفتح الباب.. آه.. لا أستطيع أن أتحامل على نفسي.. هه..

- لماذا لا نبقى هنا معاً؟

- لا.. لا.. أريد سلوى.. سلوى.. حبيبتي فقط..

فتح عاصم الباب متحاملاً على نفسه ثم صرخ برعب:

- سلوى الصغيرة بجديلتيها.. آه.. إنها سلوى نفسها.. آه.. وسقط فاقد الوعي، وبعد مدة لا يعرف عنها شيئاً، استيقظ ووجد نفسه في سرير أبيض وقرب سريره وجه طافح بالحنان:

- أنت بخير الآن يا ولدي..

- أمي.. ما الذي أتى بك إلى هنا؟ آه أين أنا.. لماذا أرتدي هذه الثياب؟

- أنت في المستشفى يا بني، قاسينا كثيراً حتى عدت لوعيك، كنت تمر بمرحلة مخيفة من الهلوسة..

- أنا؟ منذ متى وأنا هنا؟

- منذ عشرة أيام..

- وكيف أتيت إلى هنا؟ كيف عرفت بمرضي؟

سمع صوت حامد قربه، كان يبتسم بحنان:

- أنا رافقتها إلى منزلك يا عاصم.. حضرت المسكينة من القرية في حالة يرثى لها، قالت لي:

«رأيت حلماً فظيعاً، أشعرني أن عاصماً في خطر.. أرجوك يا حامد.. أريد أن أطمئن عنه..».

حاولت تهدئتها ولكنها كانت قلقة تبكي.. بصراحة.. كنت أخاف أن تستقبلها العجوز استقبالاً مهيناً وتطردها..

- وماذا حدث؟ هل ذهبت إلى البيت؟

- نعم.. طرقنا الباب، لم يفتح لنا أحد.. بصراحة خفت عليك.. وأنا أرى خالتي أم عاصم تبكي وتصرخ منادية باسمك..

- وماذا فعلت؟

- استعنت بالشرطة، وخاصة أن البيت منعزل تقريباً عن بقية البيوت.. ولم يفتح الباب أحد..

- نعم.. أكمل..

- كسر رجال الشرطة الباب، فرأوا العجوز غائبة عن الوعي

وأنت ممدَّد إلى جانبها وجرح في بطنك ينزُّ دماً.. يبدو أنها هاجمتك فقاومتها رغم تعبك وأفقدتها الوعي رغم أنها أصابتك بجرح بليغ..

تنهدت الأم:

- آه يا بني.. كان منظراً مخيفاً، تلك المرأة المستلقية، وبيدها سكين يقطر منها الدم، وأنت إلى جانبها فاقد الوعي.. آه.. حمداً لله على سلامتك يا حبيبي..

وأكمل حامد:

- لولا ذلك الحلم الذي رأيته يا خالتي، وحضورك إلينا بهذه اللهفة، كنّا خسرنا هذا الشاب الذي نحبّه جميعنا..

دخلت لينا وخلفها سلوى:

- كيف حالك اليوم يا عاصم.. أحضرنا لك أزهاراً.. سلوى صديقتي أصرَّت أن تحضر لك أزهاراً..

- «سلوى؟» فكَّر: «عجيب شعرها غير مجدول بضفيرتين».

همست لينا في أذنه:

- ما تزال معجباً بها، سأدعوك أنت وامرأة عمي على الغداء بعد خروجك من المشفى وستكون سلوى موجودة.. هه..

سألها هامساً:

- قولي لي.. ألم يكن شعرها مجدولاً بضفيرتين على ظهرها؟

أجابت:

- أيها الخبيث.. كان ذلك في صغرها.. آه كنا صغيرتين وكانت تسمّى (بأم الجدايل) وبعد أن كبرت لم تجدل شعرها يوماً.. هه.. ألم تلاحظ أن شعرها لم يكن مضفوراً حين قابلتها أول مرَّة..؟

- آه.. نسيت..

تدخل حامد:

- ماذا؟ لماذا تتهامسان؟ هناك أسرار؟ ألسنا أصدقاء يا عاصم قل لنا أسرارك.. ولكن.. لا.. لا.. لا داعي قد تكون أسراراً خاصة..

قالت لينا محذرة:

- انتبه يا أستاذ حامد.. عاصم مثل أخي تربينا معاً.. وأفضله على جميع إخوتي.. لذلك لا تصطدْ في الماء العكر..

- لا أقصد شيئاً يا آنسة.. عذراً..

- لا عليك.. هناك أسرار بيننا، ولكنها خاصة جداً بين الأخت وأخيها..

حاول حامد التخلص من ارتباكه:

- لم نسمع رأيك يا آنسة سلوى..

- ماذا أقول؟ لم تترك لينا الكلام لأحد..

قالت لينا:

- معك حق.. ندع المِصْوات (الميكروفون) الآن، للآنسة سلوى.. تفضلي يا آنسة..

قالت الأم:

- ما أخبثك يا عفريتة.. لم تتغيَّري..

- هذا أفضل يا امرأة عمي.. لماذا نحمّلها أكثر من اللازم..؟

- معك حق يا ابنتي..

وفي اليوم التالي، حضر المحقق، وكان حامد يجلس مع عاصم، وعاصم يستفسر منه عمّا حدث.. أحس حامد بارتياح لدخول المحقق:

- سيكمل لك القصة حضرة المحقق.. قل له يا سيدي كيف اكتشفتم أسرار تلك العجوز؟

- عثر رجالنا على جثث عدَّة شبان في البيت، كانت العجوز قد حنَّطَتْهم، ومن بينهم ولدها الميِّت، كانوا محنَّطين بطريقة متقنة..

سأل عاصم بلهفة:

- لماذا؟ ومن كانوا؟

- كانوا جميعاً أصدقاء لولدها الذي مات من مرض عضال.. وكان آخر أولادها، لم تستطع أن تتخيل أنها ستعيش وحيدة دونه، فحنَّطته، وأبدلت جثته في المستشفى بجثة ميت من المشرحة، ودفنت تلك الجثة الغريبة على أنها ولدها.. أما جثة الابن، فتحولت إلى كائن محنَّط، تناغيه وتداعبه كل يوم..

- ولماذا حنَّطت أصدقاء ولدها؟ هل قتلتهم أولاً ثم حنَّطتهم؟

- نعم.. استدرجتهم واحداً واحداً.. وفعلت لهم كما فعلت بابنها.. حنَّطتهم..

- قصة أشبه بالخيال؟ ومن أين لها المعلومات بعلم التحنيط؟

- هذه العجوز التي قد لا تأبه لها، هي خريجة الجامعة

الأمريكيَّة في بيروت في الأربعينيات، وكانت ذات حضور علميّ بارز في ذلك الحين..

- وأنا؟ لماذا أرادت قتلي؟

- آه.. ماذا أقول لك؟ إنك تشبه ولدها المتوفى شبهاً غريباً..

- أنا؟ معقول؟ ولكنها لم تظهر لي أيّ حبّ أو مودة، بالعكس كنت أرى نظرات الكراهيّة في عينيها..

- لهذا أرادت قتلك وتعزية نفسها أن لا أحد مثل ابنها يعيش بعيداً عنها..

- وسلوى؟

- كانت لها ابنة صغيرة اسمها سلوى.. ماتت في سنّ مبكِّرة أيضاً.. وكانت ابنتها الوحيدة..

- حتى الآن ما زال الكثير من الأمور التي لم أفهمها.. تلك الطرقات الغريبة في الليل.. الأصوات غير المألوفة التي تتكرَّر كل ليلة..

- مع الأسف لا نستطيع استخلاص الأجوبة عن هذه الأسئلة إلا منها..

- وأين هي الآن؟

- في إحدى المصحّات العقليّة..

وحين ذهب المحقق كان عاصم محتاراً شارداً:

- لست أصدق نفسي.. أمعقول أن يكون هذا ما حدث لي؟

- وهذا ما أسأل نفسي أحياناً.. تعرضت يا عاصم لاختبار مخيف في حياتك.. الحمد لله أنك خرجت منه بعقلك.. إنه اختبار فيه عناصر الجنون مجتمعة في تلك المرأة الغريبة.. هه.. نسيت أن أقول لك.. سلوى تنتظرك في (مقصف الجامعة) في الساعة الثانية..

- سلوى.. آه.. نعم.. سأكون هناك..

- كانت مناسبة أن يجبرك عمك على السكن معهم هذه السنة على الأقل، وهذا مناسب لك ستكون إلى جوار بيت سلوى.. يكفي ما جلب لك السكن الخاص من متاعب..

همهم عاصم متنهداً:

- معك حق..

بالطبع تبدو القصة غريبة، ولكن عاصماً حين يستعيدها، يشعر بالقشعريرة ويتخيَّل نفسه والعجوز تزيل أحشاءه وتحشو

بطنه، وتجري عليه عمليات التحنيط لينضم إلى جثث غيره في غرفتها..

ولم يقم أولادها بأي عمل، فما حدث أذهلهم بالطبع.. ولكنهم يحمّلون قسطاً من المسؤولية بترك والدتهم وحيدة دون رعاية واهتمام..

ويعيش عاصم الآن في العاصمة وقد تزوج سلوى ورزقا بصبيين.. وقد سافر إلى أوربة، ليتابع اختصاصه العالي، وعاد عام ١٩٩٠ وهو يدرّس حالياً في الجامعة.

☆ ☆ ☆

دمشق – سورية – ص.ب: ٩٦٢ – هاتف: ٢٢١١١٦٦ – فاكس: ٢٢٣٩٧١٦

e-mail: fikr@fikr.com - http://www.fikr.com/

Science Fiction

NIGHT BIRDS

Ṭuyūr al-Layl

By: Dr. Ṭālib ʻImrān

سلسلة قصص وروايات شيقة، بقلم أحد أهم رواد الخيال العلمي العرب، الدكتور طالب عمران، تأخذ القارئ إلى عوالم، يمتزج فيها الواقع بالخيال، والعلم بالقوى الخفيّة للإنسان، والمعقول بغير المألوف؛ وذلك لاستخلاص فوائد علميّة وأدبيّة وتربوية، عبر أحداث مثيرة ولغة ممتعة وحبكة ذكيّة، تدفع القارئ إلى التفكير والتحليق مع الكاتب.

والمؤلف ينطلق في بناء قصصه ورواياته العلمية الخياليّة على أسس واقعيّة لها علاقة بالمكان، ومع ظواهر مدهشة في حياتنا يفسّرها العلم، وتوقعات مبنيّة على المنطق العلمي لمستقبل الإنسان على هذا الكوكب.. فيجعل كل ذلك منها مادة قيمة، تعود بالنفع والمتعة على القارئ..

فرات
www.furat.com

ISBN 1-59239-204-0

